الفصل الخامس

النشاط الفكرى والتفاعل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين

أولا ـ النشاط الفكرى ٠

ثانيا ـ التفاعل الاجتماعى ٠

***

أولا ـ النشـــاط الفـــكرى :

مما لاشك فيه أن الحروب الصليبية التى اتخذت من بلاد الشام مسرحا رئيسيا لأحداثها مدة قرنين من الزمان ، أدت الى وجود احتكاك حضارى بين المسلمين والصليبيين ، كان له شأن هام فى انتقال بعض التأثيرات الحضارية الاسلامية عبر بلاد الشام الى الغرب الاوروبى • وينبغى علينا الأخـــذ فى الاعتبار أن الحضارة الاسلامية ـ أو التأثيرات الحضارية الاسلامية ـ عندما أخذت تشق طريقها الى الغرب الأوروبى ، منذ أواخر القرن الحادى عشر ، سلكت عدة معابر أو قنوات أهمها ثلاثة هى : أسبانيا أولا ، وصقلية ثانيا ، وبلاد الشرق الادنى وما ارتبط بها من حروب صليبية ثالثا • غير أنه يحسن عدم الانسياق فيما ذهب اليه بعض كتاب القرن التاسع عشر من تركيز الضوء على أهمية الحروب الصليبية ، كمعبر انتقلت عليه التأثيرات الحضارية الى الغرب الأوروبى (١) • فالصليبيون قصدوا بلاد الشرق للغزو والاستعمار ، واتصفت حياتهم الجديدة بما يتصف به الجنود عادة من خشونة ، وتوجيه اهتمامهم الى الدفاع عن كيانهم وسط المحيط الاسلامى الواسع • واذا كانت الحروب بين المسلمين والصليبيين خفت وطأتها احيانا ، وتوقفت حينا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، الا أن الروح العدائية كانت هى الأصل • فالمسلمون لم ينسوا أن الصليبيين أتوا الى بلادهم بقصد الغزو والاستقرار، ومن ثم آلوا على أنفسهم ضرورة طرد الصليبيين من بلادهم ، وبالفعل تمكن المسلمون من القضاء على آخر المعاقل الصليبية الكبرى بالشام ـ وهى مدينة عكا سنة ١٢٩١ م • وهكذا لم تتح للصليبيين فى الشرق الأدنى حيـــاة الاستقرار ، وهى الحياة اللازمة لمباشرة النشاط الفكرى ، بالقدر الذى اتيح لاخوانهم الاوروبيين فى الاندلس وصقلية (٢) • على أنه يجب أن نضع فى بالنا أن أوقات السلم بين المسلمين والفرنجة ، كانت أطول من فترات الحروب ،

---

(١) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ٥٦ ـ ص ٥٧ ،
محمد خلف الله : الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ، ص ٢٣٤ ـ ص ٢٣٥ ،
(٢) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ٥٧ •

سواء أكان ذلك شتاء أم صيفا ، وتلك الفترات التى كانت تستمر فيها الهدنة أتاحت للفريقين الفرصة لأن يختلطوا اجتماعيا ، ويتعاطوا مختلف الاعمال الاقتصادية (١) · أما التبادل الفكرى فلا يتم الا فى ظل استقرار كامل ·

والواقع أن المسلمين فى كل مكان من بلاد الشام ، كانوا يعتبرون أنفسهم أرفع ثقافة من الافرنج ، فكانت نظرتهم اليهم نظرة ترفـــع فيها شىء من الازدراء وعليه فلم ير المسلمون أن الفرنجة لديهم شىء ثقافى ومعارف تستحق الاهتمام (٢) · وأفضل من عبر عن موقف المسلمين من الفرنجة بالنسبة الى الثقافة والعلوم ، هو أسامة بن منقذ صاحب شيزر ، اذ قال : « سبحان الخالق البارىء ، اذا خبر الانسان أمور الافرنج ، سبح لله تعالى وقدسه ، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير (٣) » ويمكن القول أن الحروب الصليبية، على الرغم من أنها كانت غنية فى حوادثها المثيرة ، فانها كانت حروبا عقيمة هزيلة فيما حققته من نتائج فى حقل الفكر والثقافة ، وان المرء ليستطيع القول أن أثرها فى الغرب كان أفضل من أثرها فى الشرق ، لأنها فتحت أمام الغربيين نوافذ اطلوا منها على آفاق رحبة بعيدة ، لاســـيما فى حقلى التجـــارة والصناعة ، أما فى مجال الفكر ، فقد كان مجدبا (٤) ، قليل العطاء ·

وقد كان من الصعب فى عصر الحروب الصليبية ، ايجاد تفاعل فكرى بين المسلمين والفرنجة ببلاد الشام · صحيح أن الحضارة الاسلامية كانت وقتئذ متفوقة على الحضارة الغربية ، وعلى مستوى ارفع منها ، لكن العداء المستحكم بين الشرق والغرب ، والتعصب الدينى ، والحاجز اللغوى ، كل هذه الامور وقفت حائلا دون التفاعل الفكرى على نطاق واسع (٥) · وقد كان من المتوقع مثلما حدث فى بالرمو بصقلية ، أن يثير الاتصال بين الفرنجة والمسلمين النشاط العقلى ، على أن مجتمع الشرق الفرنجى الذى كاد أن يتألف بأسره من

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٧٩ ·

(٢) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٨٧ ·

(٣) الاعتبار ، ص ١٣٢ ·

(٤) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٧٨ ،
Hitti : History of the Arabs. p. 659

(٥) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٨١ ·

الجنود والتجار ، لم يهيىء فى الواقع مناخا صالحا لاقامة مستوى فكرى رفيع (١) ٠

ومن الثابت أن الصليبيين قد تغيروا خلال مدة تسعين عاما من احتلالهم الاراضى المقدسة ، اذ تبادلوا الحديث مع رجال من ذوى العلم من العرب ، وعاشوا مع الحشود الكهنوتية لاسيما : النساك النساطرة ، والأرمن ، والرهبان الاقباط ، والموارنة ، واليعاقبة الذين كانوا يأتون للصلاة فى كنيسة القيامة عندما تكون الطرق آمنة (٢) ٠ وقد أدى ذلك الى انهيار خشونة السيد الاقطاعى المألوفة فى الغرب الاوروبى امام كياسة الشرق ولباقته ، وتحوله الى رجل مهذب ذو ثقافة وعادات طيبة (٣) ٠ ولهذا كان من بين الامراء والنبلاء الصليبيين كثير من رجال الثقافة ، لاسيما فى بلاط بيت المقدس ، فبلدوين الأول (١١٠٠ ــ ١١١٨ م) الذى كان قسا فى شبابه كان مثقفا ؛ وبلدوين الثالث (١١٤٣ ــ ١١٦٣ م) وعمورى الأول (١١٦٣ ــ ١١٧٤ م) شغفا بالقراءة ، وأولعا بدراسة القانون والتاريخ ، وكانا يشعران بالغبطة عند التحدث مع الاطباء والشمامسة والعلماء ، وعمورى هو الذى طلب من وليم الصورى الشروع فى كتابة تاريخ للصليبيين (٤) ٠ كذلك كان حنا دى ابلين Jean d'Iblen نموذجا للبارونات المتحضرين من الجيل الثانى ، راعيا للفنون، مهتما بالأدب ، دارسا عظيما للقانون (٥) ٠

ومن المعروف أن التبادل الفكرى بين فريقين ، لابد وأن يسبقه معرفة كل فريق بلغة الآخر ، حتى يتسنى له الاطلاع على آدابه وعلومه ، وسبر أغوارها؛ واذا طبقنا ذلك فى الشرق الفرنجى نجد أن اللغة حالت دون التمازج الفكرى والثقافى ٠ وبالرغم من ذلك ، فقد الزمت ضرورات الحياة السياسية

---

(١) رنسيمان : الحرب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٨١٧ ٠

(٢) Lamb : op. cit. p. 56

(٣) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages. Vol. I p. 435

(٤) Longnon : Les Français d'Outre Mer en Moyen p. 143

(٥) Thompson : op. cit. p. 435

والاجتماعية بعض كبار الامراء والنبلاء الصليبيين أن يتعلموا اللغة العربية ، وان يلموا بها الماما تاما ، حتى يسهل عليهم التعامل مع المسلمين ، والتفاوض معهم فى ميادين السلم والحرب (١) • وبصرف النظر عن البولانيين الذين كانوا على دراية باللغة العربية ، فقد كان على العديد من السادة الاقطاعيين أن يكونوا على دراية بالعربية ، وهى معرفة لازمة للعلاقات بأفصالهم ، وتنظيم الادارة والتجارة ، غير أنه لاشىء يدل على أن بارونات بلاد الشام كانوا على دراية بالشعر العربى مثلما هو الحال بالنسبة للنورمان فى صقلية (٢) •

ويأتى فى مقدمة الذين اهتموا بمعرفة اللغة العربية ، وتذوق آدابها ، المؤرخ وليم الصورى ، الذى من المرجح أنه ولد فى مدينة بيت المقدس قبيل عام ١١٣٠ م ، من أبوين ينتسبان الى أسرة فرنسية ؛ نشأ وليم فى الشرق ، وتعلم اللغتين العربية واليونانية ، واجاد القراءة والكتابة بهما اجادته اللاتينية ، وألف بناء على رغبة صديقه وسيده عمورى الاول ملك بيت المقدس ، كتابا عن تاريخ الشرق بوجه عام والغرب بوجه خاص ، منذ ظهور الاسلام الى زمنه ، وتناول فيه الحديث عن محمد صلى الله عليه وسلم وأمراء الشرق أجمعين ، معتمدا على المصادر العربية واليونانية ولا سيما تاريخ سعيد بن البطريق ، وأسمى وليم كتابه هذا تاريخ Une Historia Sara Cenorum وللاسف ضاع هذا المخطوط الكبير ، ولم يبق منه سوى ما نقله منه مؤرخو القرن الثالث عشر (٣) • وشارك وليم فى هذا الميدان ريموند كونت طرابلس الذى تولى الوصاية على ملك بيت المقدس عام ١١٧٤ م ، ففى أثناء السنوات الطويلة التى أمضاها فى الاسر فى حلب بدءا بعام ١١٦٥ م ، انكب على القراءة والدراسة ، وتعلم اللغة العربية ، ودرس سبل المسلمين وأساليبهم (٤) •كذلك كان رينالد سيد صيدا (١١٧١ ــ ١١٨٧ م) ممن كان بهم ميل للعلم والدراسة، وله ولع خاص بالآداب العربية ، عرف باطلاعه « على بعض التواريخ والأحاديث » ، وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه ، وقد نال رينالد اعجاب صلاح

---

(١) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٤ •

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique. Vol. I. p. 261

(٣) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٤ ــ ص ١٨٥ •

(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٦٥٣

الدين الأيوبى ، اذ عندما اشتد ضغط الاخير على قلعة الشقيف أرنـــون فى ديسمبر عام ١١٨٨ م (٥٨٥ هـ) ، قدم رينالد الى مخيمه ،وأعرب له عن رغبته فى تسليم القلعة والالتجاء الى دمشق ، بعد أن يمهله ثلاثة شهور لتسوية أموره ، ولوح لصلاح الدين بانه قد يعتنق الاسلام ، فاقتنع بصدق نيته ، ولكن ظهر بعد ذلك أن ما قاله خديعة (١) • وعندما زار ابن جبير عكا مع قافلة ، شاهد كتاب الديوان (الجمرك) الصليبيين ، وهم يكتبون باللغة العربية ويتكلمون بها (٢) • وقد وجد رهبان الفرنج أن من الخير لهم استيعاب اللغـة العربية . ونلمس ذلك عندما أرسل زعيم طائفة الاسماعيلية وفدا الى لويس التاسع ، احتاج الى تراجمة من الافرنج لينقلوا الرسالة بواسطتهم ، ولما أرسل لويس سفيرا للاسماعيلية فى قلاعهم ؛ وقع اختياره على الراهب الدومينيكانى ايف لى بريتون Yves Le Breton ، الذى كان على دراية تامة باللغة العربيـــة (٣) •

ولم يحاول المسلمون معرفة لغة الفرنجة ، كما يصنع أغلب الذين يختلطون بهم من التجار ونحوهم ، واسامة بن منقذ الذى خالط البعض منهم وصادقـه لم يكن يحسن غير لغته العربية ، وهو يقول عن الافرنج : « انهم لا يتكلمون الا بالافرنجى ، ما ندرى ما يقولون (٤) » • وفى مكان آخر يشير الى امرأة فرنجية « تبربر بلسانهم وما ندرى ما تقول (٥) » •

أما عن التعليم فى الشرق الفرنجى ، فالمعلومات عنه ضئيلة للغاية ، لعدم اهتمام الامارات اللاتينية بانشاء مراكز ثقافية لرعاياها ، ولأن التعليم بها مثلما كان بالغرب لايعدو أن يكون عبارة عن مدارس ملحقـــة بالكاتدرائيات

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٤٢ ــ ص ٤٣ •
ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٦ ، ص ١٩٢ ــ ص ١٩٣ •
أبو شامه : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ •

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٥ •

(١) Grousset : Histoire des Croisade. Vol. III pp. 517—518

(٤) الاعتبار ، ص ٦٦ •

(٥) الاعتبار ، ص ١٤٠

الكبيرة ، أو ببلاط الملوك والامراء على النمط الموجود فى الغـــرب الاوروبى وقتذاك ؛ ولا ادل على ذلك من أن قادة الفكر من رجال السياسة والدين أمثال وليم الصورى ، وأيمرى بطريرك انطاكية ، وجيمس دى فيترى اسقف عكا ، كانوا ممن ذهب الى فرنسا لاكمال تعليمه (١) · وعلى أية حال ، فقد ظلت ثقافة الفرنجة فى الشرق الفرنجى مستوردة من الغرب ، ولم يحدث الا اتصال ضئيل بالثقافة المحلية ، فيما عدا الفنون ، لاسيما الحـــربية منها · ومن الاسباب التى أدت الى ضآلة الحياة العقلية الفرنجية ببلاد الشام ، حالة العداء الدائمة التى عاشها السادة الاقطاعيون الصليبيون بينهم وبين المسمين، وترتب على ذلك أن ما اسهمت به الحروب الصليبية من ثقافة لغرب أوروبا كان مخيبا للآمـــال (٢) ·

واذا فرضنا أن الصليبيين توافرت لهم مقومات الحياة العلمية ، فأين لهم بالعلوم التى يأخذون عنها ؟ فالثابت أن عصر الحروب الصليبية بالذات قد امتاز بنوع من النضوب الفكرى فى بلاد المشرق الاسلامى ، فقل الاقبال على الفلسفة بوفاة ابن سينا عام ١٠٣٧ م ، والغزالى عام ١١١١ م ، بل أن الخليفة العباسى فى بغداد أمر عام ١١٥٠ م (٥٤٥ هـ) باحراق الكتب الفلسفية، ومن بينها مؤلفات ابن سينا نفسه ؛ ولهذا لم يكن فى وسع رسل الغرب الاوروبى الاستفادة من المسلمين وعلومهم (٣) ·

وبالاضافة الى ذلك الرأى ، فان المسلمين الذين وقعوا تحت الســيطرة المباشرة للصليبيين ، لم يكن فى وسعهم مزاولة النشاط العقلى كما ينبغى نظرا لوضعهم المزعزع ، والممتلىء بالقلاقل ، حتى المدن التى ظلت بعيدة عن متناول الصليبيين ، وصلت الحياة العقلية فى بعضها الى درجة بالغة الانحطاط · من ذلك حلب التى كانت امارة مستقلة حينا ، وتابعة لدمشق تبعية فعلية حينا ،

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٨١٨ ،
سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٨ ·

(٢) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٨٢٢ ،
Chalandon : Hist. de La Première Croisade, p. 360.

(٣) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ، ص ٣٧٣ ·

واسمية حينا آخر ، نلاحظ أنها على ايام الحروب الصليبية الاولى خلت من العلماء بسبب التهديد الصليبى المستمر لها ، حتى صار الناس يأخذون النحو من أبى السخاء فتيان الحلبى ، وهو حائك من عوام حلب ، قرأ شيئا من النحو وفهم أوائله ، ولما عدم فى زمانه من يعرف هذا الشأن ، وظلت المدينة حينا من الزمن لا عالم بها ، قنع الناس بما عند فتيان الذى توفى فى حدود عام ٥٦٠ هـ ، ثم لم تلبث حلب ان استعادت مركزها العلمى ، حتى صارت مكتظة بالعلماء ، كما وصفها بذلك ابن خلكان عندما زارها عام ١٢٢٨ م (٦٢٦ هـ) (١) ٠ واذا كان ذلك حال حلب ، فان الوضع فى دمشق اختلفت عنها ، فأثناء زيارة ابن جبير لها فى عصر الحروب الصليبية على أيام صلاح الدين الايوبى ، وزار جامعها الشهير ، رأى ما كان يعقد من حلقات الدراسة ، التى كان ينفق على طلبتها ومدرسيها أوسع النفقات ؛ وقد كان هذا الجامع الذى وصفه ابن جبير من أعظم مواطن الثقافة فى الشام ، وعرف فى عصر الحروب الصليبية طائفة من اعلام العلماء ؛ ويرجع السبب فى ذلك الى أن دمشق كانت أبعد من أن تنالها آمال الصليبيين ، ولهذا ظلت الحركة العلمية نشيطة بجامعها العتيد (٢) ٠ أما المسجد الاقصى ، عندما سقط فى ايدى الصليبيين عام ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) ، عملوا على تحويل قبة الصخرة الى كنيسة ، والمسجد الى منزل لسكنى ملكهم ، وسرعان ما اختفى صوت العلم فيه زهاء تسعين عاما ، حتى فتحه صلاح الدين الايوبى ، فاعاده الى ما كان عليه (٣) ، وقبل مجىء الصليبيين كانت مدينة طرابلس من أعظم مواطن العلم فى الشام ، بفضل الحسن بن عمار قاضى طرابلس للفاطميين والمتغلب عليها ، فقد أنشأ بها دار حكمة ، على مثال تلك التى انشأها الحاكم بأمر الله بالقاهرة ، وللغرض نفسه انشئت من أجله ، وهو نشر التشيع ، وعظمت طرابلس فى زمن بنى عمار ، ويقال انه كان بها اذ ذاك عدة مدارس وخزائن كتب ، ولكن نور العلم لم يلبث أن خبا بعد عهد قصير من قيام الحروب الصليبية ، اذ سقطت طرابلس فى يد الفرنجة عـــام ١١٠٩ م (٥٠٣ هـ) (٤) ٠

---

(١) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٥ ٠
(٢) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٣ ــ ص ٢٤
(٣) أحمد بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٦ ٠
(٤) أحمد بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٩ ــ ص ٣٠ ٠

ولهذا لم تكن بلاد الشام والحروب الصليبية ، فيما زعم بعض باحثى القرن التاسع عشر ، الطريق الاكبر للتبادل الثقافى بين الاسلام والمسيحية، فلم يكن هناك فى مملكة اللاتين فى الشرق الادنى او قريبا منها مركز عظيم للمعارف الاسلامية ، يستطيع المسيحيون أن يستمدوا منه ، ولم يكن هناك أيضا امتزاج ثقافى مستمر أو عميق بين المسيحية والاسلام كما كان فى اسبانيا وصقلية (١) • وثمة فارق بين الوضع السياسى فى اسبانيا أيام حكم العرب لها ، وبين بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية • ففى اسبانيا كان الغالب ــ وهم المسلمون ــ يمتلك معظم البلاد فيما عدا بعض الجيوب الصغيرة فى المناطق الشمالية الجبلية ؛ اما فى الشام فقد كان الغالب ــ وهم الفرنجة ــ فى وضع قلق مزعزع ، يقيم فى القلاع والثكنات وسط محيط واسع من المسلمين• من أجل هذا استطاع العرب فى اسبانيا أن ينشروا ثقافتهم وعلومهم ، فاستفاد منها المسيحيون استفادة بالغة الاهمية ، بعكس الامر فى بلاد الشام ، اذ اهتم الغالب بالطريقة التى يحمى بها وجوده قبل أى شى آخر •

ويقع الانتاج العقلى للفرنجة فى الشرق الادنى فى ثلاثة اقسام : اولها الحوليات والتواريخ • فلمدة قرنين من الزمان ، أضحت الحركة الصليبيـــة حديث اوروبا ، وقد تنافس الرجال الذين كانت لهم القدرة على الكتابـة على طريقة الحوليات ، وهى الطريقة الشائعة فى العصور الوسطى بين مؤرخـــى الشرق والغرب ؛ وفى اول الامر كتب القسس والجنود والملاحظون الأذكيـــاء قصصا عن الحوادث التى شاهدوها وعرفوها ، تلك القصص المفعمة بالمعجزات والخوارق والخرافات والبطولات (٢) • وكل الحوليات باستثناء وليم الصورى وتاريخ أحد الذيلين علية مثل أرنول ، الفها رجال ولدوا ونشأوا فى الغرب (٣)• وتاريخ الحروب الصليبية ببلاد الشام رواه ما يقرب من اثنى عشر مؤرخ معاصر ، وألمع أولئك المؤرخين قاطبة وليم الصورى ، فأعماله التاريخية عظيمة بكـــل ماتحمله الكلمة من معنى ؛ واذا كان قد اطلق على هيرودوت أب التاريخ

---

(١) محمد خلف الله : الثقافة الاسلامية ، ص ٢٣٥ •

(٢) Lamb : op. cit. p. 382

(٣) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨١٩ ،
نظير سعداوى : الحرب السلام ، ص ١٨٨ •

فان وليم الصورى يعتبر أب التاريخ فى عصره ، وهو جدير بذلك اللقب لحسن نظامه وتنسيقه ، ومعالجته الفنية للموضوع ، تمتعه بفن السرد الحيـــوى للحوادث (١) • وقد امتلك وليم أعظم صفتين لكتابة التاريخ فى عصـــره ؛ المعرفة الشخصية باصحاب الحوادث بحكم منصبه الرسمى الحالى ، وايمانه الشديد بالحقيقة ؛ ولما كان وليم دبلوماسيا واسقفا ومؤدبا ملكيا ورئيسا لـديوان انشاء المملكة ، فمن المحقق أنة امتلك تجربة عن الرجال والشئـــون العامة لاينافسه فيها أحد (٢) • ومن بين مؤرخى الحروب الصليبية الغربيين ذلك النورمندى المجهول الذى صنف كتاب «أعمال الفرنجة» Gesta Francorum وصف فيه أول حرب صليبية ؛ وفولشر الشارترى Fulcher of Charters الذى الف كتاب Historia Hierosolymitana وصف فيه الحرب الصليبية الاولى ، وتاريخ مملكة بيت المقدس حتى عام ١١٢٧ م (٣) •

وثانى الانتاج العقلى للفرنجة فى بلاد الشام ، تلك الحصيلة الضخمة من المؤلفات القانونية ، وهى مجموعة التشريعات القانونية والدستورية التى اهتم بها الصليبيون الاوائل وسلالتهم ، وحرصـوا على تدوين آرائهم ، وأحكامهم القضائية ونظمهم السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية• وقد جاءت هذه التشريعات بصورة مطابقة لمثيلتها فى الغـــرب الاوروبى ، باستثناء بعض الاصلاحات الضرورية التى تطلبتها البيئة الشرقية (٤) • ويخص المؤرخون من تلك التشريعات بالذكر ما وضعته مملكة بيت المقدس الصليبية ، فخلقت منها دولة ذات نظام سياسى وطيد الاركان ، وجددت الحقوق والواجبات لرعاياها ، وهم من جنسيات متعددة واهواء متباينة ، فحققت هذه التشريعات الحياة اليومية العادية للمسيحيين من أهل الشام على اختلاف مذاهبهم ، وللمسلمين واليهود والسامريين والبدو والفرنجة فى ظل ادارة ارستقراطية من أصل فرنسى (٥) • وقد وضعت تلك التشريعات زمن بلدوين

---

(١) Archer : The Crusades. pp. 440—441

(٢) Miller : Essays on the Latin Orient. pp. 350—351

(٣) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٥ ــ ص ١٢٦ •

(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨١٩ ، نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٨ ــ ص ١٨٩ •

(٥) نظير سعداوى : المرجع السابق ، ص ١٨٩ •

الاول ، ورغم صيانتها عام ١١٨٧ م ، وهو العام الذى احرز فيه صلاح الدين الايوبى انتصاراته الباهرة ضد الصليبيين ، فقد حل محلها فى القرن الثالث عشر مجموعة أخرى من القوانين ، لم يعرف منها سوى اربعة كتب : أولها « كتاب فيليب دى نافار » تناول فيه قانون الاقطاع ، والظاهر أنه كتبه قبل عام ١٢٥٣ م ؛ وثانيها « كتاب حنا ابلين » كونت يافا ، وكتبه حوالى عام ١٢٥٣ م وهو صورة من كتاب فيليب دى نافار ؛ وثالثها « كتاب الملك » عالج فيه مؤلفه السلطة الملكية وسلطات بعض الامراء ؛ ورابعها وآخرها « كتاب نشأة البورجوازية » ، ويتناول فيه مؤلفه القانون المدنى ، ويبدو أنه كتب بين عامى ١١٩٤ ، ١٢٢٩ م ؛ ونخرج من ذلك الى أن الكتب الاربعة جمعت القوانين الادارية والتشريعية للحياة السياسية فى الشرق الفرنجى خلال القرن الثالث عشر ، كما درست طبقات المجتمع الصليبى (١) ٠

أما القسم الأخير من انتاج الحياة العقلية فى بلاد الشام الفرنجية ، فيتمثل فى الشعر القومى والعاطفى تمثيلا حيا ، والحروب كما هى العادة دائما توحى الى الادباء والشعراء بأدق الاحاسيس والمشاعر فى الوان متعددة ، يصفون فيها البطولات والمعارك ٠ واذا كانت الحروب الصليبية قد أثرت تأثيرا قويا على الادب العربى ، بل وعلى الرأى العام بوجه عام ، فمن الواضح انها أثرت فى الفكر الاوروبى ؛ وساعد على نمو هذا النوع من الأدب ما اغدقه الملوك والامراء بسخاء على الشعراء ٠ ولا ريب أن شعر العصور الوسطى كان ابتداعا صليبيا ، فمنذ بداية الحروب الصليبية أضحى التعصب الدينى والبسالة الحربية وغموض الشرق ، موضوعات الهمت منشدى العصور الوسطى ، فتغنوا بهذه المعانى على انغام القيثارة ، وسرعان ما صار لكل انشودة عظيمة عنصرها الشرقى ، فهيون من باردو Huon of Bordeaux كان له مغامرات عديدة فى فى مصر والشرق ، ورينودى مونتابان Renaud de Montauban الذى أنجزنى أواخر عمره اعمالا بطولية عادية فى الارض المقدسة ، وبيفيز من هامبتون Bevis of Hamptoun الذى زار بيت المقدس ، وتزوج بابنة أمير ، ولهذا فان الصليبيين قد ابتكروا أدبا سياسيا جديدا (٢) ٠

---

(١) نظير سعداوى : المرجع السابق ، ص ١٨٩ – ص ١٩٠ ٠

(٢) Archer : op. cit. p. 414

والمعروف أن الحملات الصليبية جاء برفقتها العديد من الشعراء الغنائيين المعروفين بشعراء التروبادور . وما اقترنت به الحروب الصليبية من أحداث رائعة مثيرة أعطت فيضا غزيرا للشـــعراء ، فلم يلبث جـودفرى اللورين (ت ١١٠٠ م) ان صار بطلا اسطوريا ، ذكرت مغامراته فى قصيدة Chevalier au Cygne ، غير انهـــا اذا كانت متداولـــة فى الشـــرق حينما الف وليم الصورى تاريخه ، الآ أنة جرى قرضها فى الغرب ؛ وشبيه بذلك القصيدتان المنظومتان عن الحملة الاولى ، وهما انشودة أنطاكية Chanson d'Antioche وأنشودة بيت المقدس اذ جرى تأليفهما فى الغرب على اساس مانقله الصليبيون العائدون معهم من معلومات ؛ اما اللحمة الوحيدة التى ألفت فى الشرق فهى أنشودة الحقراء (الأدنياء) Chanson des Chétifs التى تتعلق بحصار أنطاكية عام ١٠٩٨ م ، وتروى قصة مدهشة عن الصليبيين الذين وقعوا فى أســـر كربوقا (١) . وقد نظم القصيدة الاخيرة مؤلف مجهول ، تلبية لرغبة ريموند دى بواتييه أمير انطاكية (١١٣٦ – ١١٤٩ م) . غير أن ما استندت اليه من اساس تاريخى بعيد عن الدقة ، يعطى مؤشرا أن مؤلفها كان من القادمين حديثا الى الشرق الفرنجى ؛ وعلى كل فانها حظيت بقبول واسع فى الشرق الفرنجى وأوربا سواء . ومن أولئك الذين نظموا الشعر ، ولم ينشأوا فى الشرق الفرنجى ، فيليب النوفارى Philippe de Navare السياسى والمؤرخ والمشرع الذى نظم بالفرنسية ، على الرغم من أنه ايطالى المولد ، ويعتبر أحد رواد الثقافة الفرنسية فى الشرق ؛ وفيليب نانتيل الذى أسر فى القاهرة ونظم قصائد عن وطنه فرنسا ، عبرت عن احاسيسه ومشاعره المكبوته فى الاسر ، وحنينه الى وطنه (٢) . وبتلك القصائد وغيرها ، تكونت مادة القصص التاريخية التى وضعت فى قالب شعرى ، عمل على نقلها بعد ذلك المغنـــون المتأخرون ، فنمقوها وأضافوا اليها اضافات رومانسية من وحى خيالهم ، الأمر الذى أدى – بمرور الزمن – الى ابتكار أدب رومانسى جديد ، يتصف بالخيال ، فقـــدت فى ثناياه الحقائق المجردة (٣) .

وعلى عصر الحروب الصليبية الاولى انتشرت أغنية رولان Chanson

---

(١) Ibid. Loc. cit.

(٢) Grousset : L'Empire du Levant. p. 327

(٣) Archer : op. cit. p. 444

de Roland ، التى اظهرت شارلمان فى ثوب الصليبى الذى قام بحرب دينية مقدسة ضد مسلمى الاندلس ، وقد دونت تلك الاغنية باللغة الفرنسية الناشئة فى اسلوب جميل ، يجمع بين البلاغة وقوة التأثير ، مما مكن رجال الدين من استغلالها فى الدعوة للحروب الصليبية • ويبدو أن كثيرا من أغانى المآثر كان الغرض منها تشجيع المعاصرين على الحج وزيارة الاماكن المقدسة فى كومبوستلا وروما وفلسطين ؛ كما يبدو أن نسبة كبيرة من تلك الاغانى كتبها بعض رجال الدين ، وبعبارة أخرى كانت نوعا من الدعاية الدينية فى العصور الوسطى اتخذت شكل ملاحم (١) •

واذا كانت حالة عدم الاستقرار فى بلاد الشام ، قد اعاقت انشاء مراكز فكرية للصليبيين تؤدى الى تفاعل الثقافتين الاسلامية واللاتينية ، فان الامر لايخلو من امثلة تدل على انتقال الافكار العلمية والفلسفية العـــربية الى أوروبا ، عن طريق بعض العلماء الذين زاروا بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية • فيقال أن أدلار الباثى Adelard of Bath الذى درس على العرب علمى الفلك والهندسة ، قد طاف بمصر وآسيا الصغرى ابان النصف الاول من القرن الثانى عشر ؛ ومن الثابت أيضا أن ليوناردو فيبوناتشى Leonardo Fibonacci قد طاف بمصر والشام ، وليوناردو هذا أول عالم مسيحى اشتغل بعلم الجبر وكان معاصرا لفردريك الثانى (١١٩٨ ــ ١٢٥٠ م) والذى قدم بحثه فى الاعداد المربعة Square Numbers (٢) •

ومن الناحية اللغوية ، انسابت بعض الكلمات والمصطلحات العربية فى اللغات الغربية ، وان كانت هناك صعوبة فيلولوجية فى تحقيق نسبة استعارة هذه الالفاظ ، لان بلاد الشام لم تكن وحدها المكان الذى اتصل فيه الغـــرب الأوروبى بالشرف العربى (٣) • ولازالت الكلمات العربية التى دخلت اللغة الأوروبية حية ، تعطى الدليل القاطع للاهداف الجديدة والافكار التى وردت من الشرق الفرنجى،وتقابلنا تلك الكلماتفى كل مكان،مثل الكحول alcohol

---

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ ــ ص ٢٤٨ •
(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٣ •
(٣) سعيد عاشور : النهضات الاوربية ، ص ٢٢٤ ،
باركر : الحروب الصليبية ، ص ١١١ ــ ص ١١٢ •

والفضة alfalfa ، والقلوى alkali ، والجبر algebra ، والسمت azimuth ، والـــذروة zenith (١) . ولايزال يستعمل فى الغرب ايضا اصطلاحات عربية فى التجارة مثل : سوق Bazar ، دينار Dinar ، تعريفة Tariff ، الترتره zechin ؛ وفى الشئون البحرية مثل : أمير البحر (أميرال الماء) admiral ، دار الصناعة arsenal ؛ وفى الشئون المنزلية مثل : مختلى مظلل (فى حديقة) alcove ، الغرافة (ابريق زجاجى) Carafe ، حشية (فراش) mattress ، أريكة sofa ، تميمة (حجاب) amulet ، الاكسير elixir ، الجلاب (شراب منعش معد من بعض الأعشاب العطرة) Julep ، الطلسم Talisman ؛ ولايزال يستعمل أو قد استعمل فيما مضى بضعة اصطلاحات عربية فى الموسيقى مثل : عود lute ، النقارة naker ؛ وأيضا من الكلمات العربية التى استعيرت الى اللغة الانجليزية ، نذكر الكلمات : قافلة Caravan ، دليل السياح (الترجمان) dragoman ، جرة Jar ، شراب Surup ؛ ونكرر القول أنه قبل البت فى أن ادخال مثل هذه الاصطلاحات راجع الى الحروب الصليبية ، لابد من الرجوع الى استشارة الفيلولوجيـــة الرومانسية والعربية ، والتدقيق فى تعيين المكان الاصلى والزمن الذى تسربت الكلمات من خلاله . أما الكلمات الغربية التى انسابت فى اللغة العربية فهى أقل بكثير ، ومما يذكر منها : انبرور inperator ، قسطل Castellum ، برج Burgus ، غرش Grossu(٢) . ورغم أن المسلمين احجموا عن تعلم لغة الصليبيين ، مخالفين فى ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من تعلم لغة قوم أمن شرهم ، فان المؤرخين المسلمين كثيرا ماترددوا فى المصادر الاصطلاح الغربى « ترم » term ، ومثال ذلك قول ابن شداد : « انقضى الترم الأول، وتحضر الرهائن فى ترومكم (فصولكم) (٣) . وأيضا قول العماد الاصفهانى : « وانتهى الترم الأول » (٤) .

وعلى عصر الحروب الصليبية كان الطب واحدا من العلوم التى نبغ فيها المسلمون ، يدل على الفروق الحضارية الواضحة بين المسلمين والصليبيين .

---

(١) Lamb. op. cit. p. 380

(٢) باركر : المرجع السابق ، ص ١١١ ــ ص ١١٢ .

(٣) النوادر السلطانية ، اماكن متفرقة .
نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٩١ ــ ص ١٩٣ .

(٤) الفتح القسى ، ص ٢٦٨ .

وتكاد تنعدم معلومات الصليبيين عن الطب فى ذلك الوقت ، شأنهم فى ذلك شأن الاوروبيين فى الغرب الاوروبى ، وذلك بسبب الجهل وتزمت رجال الدين فى العصور الوسطى ، حتى اعتبروا المرض نوعا من الجزاء أو العقاب الالهى لايصح للانسان أن يعالج أو يبرأ منه ، فاذا حدث ان انتابت أحدهم حمى يهرع الى أقرب دير أو كنيسة حيث يختفى على مقربة منها منتظرا حدوث معجزة تشفيه (١) • والثابت أن السادة اللاتين فى القرن الثانى عشر فضلوا الاطباء المسلمين أو اليهود على اطباء الغرب الاوروبى (٢) • وما أورده اسامة ابن منقذ من امثلة عن ممارسة الفرنجة للطب ، تدل على جهلهم بأبسط المبادىء الطبية ، فقد قال : « ومن عجيب طبهم (الفرنج) أن صاحب المنيطرة كتب الى عمى يطلب منه انفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه • فأرسل له طبيبا نصرانيا يقال له ثابت • فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما اسرع ما داويت المرضى ، فقال : احضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف • فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت • وحميت المرأة ورطبت مزاجها • فجاءهم طبيب افرنجى فقال لهم : احضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعا « فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر • فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : « اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها » فضربه ، وأنا اراه ، ضربة واحدة ما انقطعت • ضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته • وأبصر المرأة فقال : « هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها • احلقوا شعرها ، فحلقوه • وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل • فزاد بها النشاف • فقال : «الشيطان قد دخل فى رأسها» • فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت فى وقتها • فقلت لهم : « بقى لكم حاجة ؟ » قالوا : « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أكن أعرفه » (٣) • وفى ذلك المجال يروى أسامة أيضا قصة عن عجائب الطب لدى الفرنجة قائلا : « ومن عجيب طبهم ماحدثنا به كليام دبون William of Bures. صاحبطبرية وكان مقدما فيهم • واتفق انه رافق الامير

---

(١) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٤٦ •

(٢) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury. 1er p. 1

(٣) الاعتبار ، ص ١٣٢ ـ ص ١٣٣ •

معين الدين ، رحمه الله ، من عكا الى طبرية وأنا معه • فحدثنا فى الطريق قال : « وكان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت • فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا : « تجىء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ » •قال : « نعم » ومشى معنا ونحن نتحقق أنه اذا حط يده عليه عوفى• فلما رآه قال : « اعطونى شمعا » فأحضرنا له قليل شمع ، فلينه وعمله مثل عقد الأصبع • وعمل كل واحدة فى جانب أنفه • فمات الفارس فقلنا له : « قد مات » ، قال : « نعم » كان يتعذب سددت انفه حتى يموت ويستريح » (١)•

ولم يحاول الاطباء الصليبيون محاولة اطباء جنوب ايطاليا فى الاستفادة والتعلم شيئا من الطب المحلى ، وطريقة التداوى المنظم التى استردت بعض جذورها من الشرق الاسلامى (٢) ، على الرغم من أن ستيفن الانطاكى قام سنة ١٢٢٧ م بترجمة كتاب « كامل الصناعة الطبية » من العربية الى اللاتينية ، الذى ألفه على بن العباس المجوسى (ت ٩٩٤ م) ، وكان الافرنج يضيفون الى اسمه « القديس » ، ولم يعرف كتابا غير هذا الكتاب ، ترجـــم الى اللاتينية على أيام الحروب الصليبية (٣) • وبطبيعة الحال ، لم يكن الفرنجة بحاثة أو رجال فكر ، مما أدى الى أن تصير كمية الترجمة من العربية الى اللاتينية فى فلسطين وسوريا بالغة الضآلة بشكل يبعث على الدهشة (٤) • هذا بالاضافة الى أن المركز الرئيسى للترجمة من العربية الى اللاتينية أصبح شبه جزيرة ايبريا ، حيث ازدهرت حضارة العرب ، وكثرت كتبهم فى مختلف العلوم والفنون ، ومن ثم اتجه كثير من اعلام النهضة الاوروبية فى القرن الثانى عشر الى أسبانيا ، يطلبون الارتواء من فيض الحضارة الاسلامية (٥) ؛

وبسبب الحروب الصليبية ، بلغ الصليبيون شأوا بعيدا فى التسامح فالصليبيون ــ كقاعدة ــ غلب عليهم الجهل ، فاعتقدوا فى الخزعبلات ، وصوروا

---

(١) الاعتبار ، ص ١٣٧ ــ ص ١٣٨ •

(٢) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨١٩ •
نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٩٩ ــ ص ٢٠٠ •

(٣) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٨١ •

(٤) Haskins : Studies in Med. Culture. p. 99

(٥) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ، ص ١٨٠ •

المسلمين فى نظرهم كوثنيين ، ولهم العذر فى ذلك ، فقد لقنوهم فى الغـــرب الأوروبى أن المسلمين يعبدون محمدا (صلى الله عليه وسلم) (١) • ولكن مائتى عام من الاتصال اليومى مع المسلمين والاحتكاك بحضارتهم ، أوجدت تغييرا ملحوظا فى افكار الاوروبيين ، اذ وجدوا المسلمين أصحاب ديانة سماوية فى منأى عن الوثنية ، وان محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليس بمعبود ، بل فى حقيقة الأمر من البشر ، وان كثيرا من تعاليم الاسلام مشابهة لتعاليم المسيحية ، واتضح لهم أن المسلمين يؤمنون بعيسى (عليه السلام) كنبى ، ولمسوا فى الاسلام عقيدة بسيطة وسهلة ، بعيدة كل البعد عن التعصب مفعمة بالتسامح لاسيما مع المسيحيين (٢) • ومن أبرز الفئات التى كانت مستعدة لقبول الصورة المنقحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، زعماء اللاهـــوت الذين كانـــوا يرغبون فى امداد أبناء عقيدتهم بامضى سلاح ينازلون به العدو ، الذى كان تأثيره فى الفلسفة المدرسية فى العصور الوسطى Scholastic قـــد أخذ ينتشر انتشـــارا ذريعـا (٣) • ففى عـام ١٢٧٣ م كتب وليم الطرابلسى رسالـــة عن حالة العرب ومحمد النبى صلى الله عليه وسلم وشريعتهم وعقيدتهـــم ، والصورة التى صور بها الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وان كانت أبعد ما تكون عن شخصيته التاريخية ، فان بها من العناصر الخرافية والمطاعن،قد أنزل الى الحد الأدنى الذى لاغنى عنه لمدافع عن المسيحية فى العصور الوسطى ، فيقرر وليم أن العرب يعتقدون أن جبريل (عليه السلام) نقل الارادة الالهية Voluntatem Divinam الى النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ثم صاغ المؤمنون ما كان ينطق به كتابا (٤) •

ويبـدو ان محـاورات دينيـة بين المسـلمين والصليبيين كانت تحدث احيانا ، فقد تحدث ابن شداد فى حوادث عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) عن رينالد سيد صيدا والشقيف أرنون ، أنه كان من دهاة الصليبيين ، تردد كثيرا فى خدمة السلطان صلاح الدين ، وقال عنه : « وكان يناظرنا فى دينه ويناظره فى

---

(١) Hulme : The Middle Ages. p. 511

(٢) Ibid. Loc. cit.

(٣) جروينباوم : حضارة الاسلام ، ص ٧١ •

(٤) نفس المكان •

بطلانه ، وكان حسن المحاورة متأدبا فى كلامه » (١) • ونكرر القول أن الصليبيين الاوائل عندما أتوا الى الشام ، وضعوا فى أذهانهم أنهم أرفع قدرا من المسلمين الذين ألصقوا بهم تهمة الوثنية ، وعبروا عنهم بكلمة « الكفار » التى فاضت بها المصادر المعاصرة • وكثيرا ما سخروا من الرسول صلى الله عليه وسلم ، من ذلك أنهم عندما فرضوا الحصار على حلب عام ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) ، عمدوا الى قبور المسلمين فنبشوها ، وأخرجوا بعض الجثث التى لم تنقطع اوصالها، وسلبوا الاكفان ، وربطوا فى أرجلهم الحبال ، وسحبوها مقابل المسلمين ، وجعل البعض منهم يقول : « هذا نبيكم محمد » ، وآخر يقول : « هذا عليكم»، كما أخذ البعض مصحفا ، ونادى على أحد المسلمين قائلا : « يا مسلم أبصر كتابكم » ، فثقبه ببيده وشده بخيطين ، وعمله ثفرا (السير الذى فى مؤخر السرج) لبرذونه ، وظل البرذون يروث عليه ، والفرنجى يضحك عجبا وزهوا (٢) • ولكن الصليبيين لم يلبثوا ان أدركوا أن المسلمين أهل كتاب وحضارة تفوق حضارتهم ، ومن ثم تبدلت مفاهيمهم نحو المسلمين ، وزال التعصب الدينى البغيض ، وحل محله الاختلاط زمن السلم • والواقع ان اتصال الفرنجة مع شعوب الشرق اصحاب الديانات العريقة المختلفة ، فتح اعين الغربيين على حقيقة انه من الممكن أن توجد شعوب ذكية ومثقفة ، وحضارة متفوقة على حضارة أوروبا الاقطاعية ، وبذلك تكون الحركة الصليبية قد خلقت حالة فكرية جديدة • ووجد عشرات الالوف من الصليبيين فى المسلمين الهدوء والجاذبية ، بعد أن كانوا فى حالات عديدة الكفار ، المحتقرين ، المكروهين، الشريرين ، أبناء الشيطان (٣) • ولم يترك الاسلام فى نفوس البعض انطباعا قويا فقط ، بل هداية أيضا ، اذ ظهرت شكوى من « مرتدين » مسيحيين ، تخلوا عن المسيحية ، وآثروا اعتناق الاسلام ، حتى أن أحد رجال الدين وهو مبشر دينى من الفرنسيسكان أرسل الى افريقية ، عاد مسلما ، كما أن التجارة الضخمة المربحة بين المسلم والمسيحى أثرت أيضا تأثيرا بالغ الاهمية فى نمو

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٩٨ •

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ـ ص ٢٢٥ •

(٣) Thompson : op. cit. Vol. I p. 433

التسامح ، لأن العلاقات التجارية الدولية ، تتطلب التسامح ، والتعصب ضار بالنسبة لانتعاش التجارة (١) ٠

وأبرز مثل للتسامح الدينى بين المسلمين والصليبيين نراه فى تصرفات الامبراطور فردريك الثانى (١١٩٨ ـ ١٢٥٠ م) ٠ فلم يشأ الدخول فى حرب ضد المسلمين ببلاد الشام ، ولا نستبعد حدوث ذلك من الامبراطور الذى حرص على تشجيع الحياة الثقافية فى مملكة صقلية ، ولا عجب فى ذلك فقد كان « محبا للحكمة والمنطق والطب مائلا الى المسلمين ، لأن منشأه بجزيرة صقلية ، وغالب أهلها مسلمون (٢) ٠ وقد اجمعت المراجع المعاصرة على أن فردريك الثانى تعلم اللغة العربية على يد معلم عربى فى صقلية ، وبذلك أصبح بلاطه مركزا لحركة علمية واسعة ، واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين والبيزنطيين، فضلا عن اليهود الذين اشتغلوا تحت رعايته بترجمة كتب الفلسفة العربية(٣)٠ وتصرفاته فى بلاد الشام كانت خير دليل على شعوره تجاه الاسلام والمسلمين٠ فقد حرص خلال وجوده فى بيت المقدس على زيارة المشاهد الاسلامية ، وعند دخوله ساحة الحرم الشريف فى مارس عام ١٢٢٩ م شاهد رجلا من رجال الدين المسيحى ، بيده الانجيل ، يهم بدخول المسجد الاقصى للتسول من الحجاج ، فغضب الامبراطور ، وبادر الى طرده فى قسوة ، واصدر أوامره الا يجتاز أى قسيس مسيحى عتبة الحرم الشريف دون اذن من المسلمين ، سوف يكون جزاؤه الموت (٤) ٠ وبينما كان يطوف بقبة الصخرة ، رأى العبارة التى نقشها صلاح الدين فى الفسيفساء حول القبة وهى : « وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين » ، فسأل مبتسما : « ومن هم المشركون ؟» كذلك عندما لاحظ الامبراطور وجود اسياخ على النوافذ ، أخبره بأنها لم تثبت

---

(١) Ibid. pp. 433—434

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٤١ ٠
سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى ، ص ١٩٨ ٠

(٣) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ، ص ٢٣ ٠

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٥ ـ ص ٦٥٦ ٠
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٠١٤ ،
Kantorowicz : Frederic the Second. p. 190

الا لترد العصافير ، فقال : « قد أتى الله اليكم بالخنازير (١) » ، مستخدما بذلك اللفظ الدارج الذى يطلقه المسلمون على المسيحيين ، وكان بحاشيته جماعة من المسلمين منهم معلمه الذى كان يقرأ له المنطق والفلسفة وهو عربى من صقلية ، لأنه لما دخل وقت الظهر ، وأذن المؤذن ، سارع جميع من معه من المسلمين بأداء الصلاة (٢) • ولما اطال الامبراطور البقاء فى القدس ، وحل موعد صلاة الفجر ، لم يسمع صوت المؤذن ، ولما استفسر عن السبب ، قيل لـــه : أن السلطان الكامل الأيوبى أصدر اوامره الى القاضى شمس الدين قاضى نابلس ــ مرافق الامبراطور خلال الزيارة ــ بعدم اقامة الآذان طيلة وجود الامبراطور بالمدينة ، « أعظاما للملك واحتراما له » فرد عليه الامبراطور مستاء أخطأت فيما فعلت ، والله انه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل (٣)، ومن الممكن اضافة سبب آخر دفع فردريك الثانى الى التقرب من المسلمين والاسلام ، هو كرهه للبابويه والكنيســـة الغربية ، تلك الكنيسة التى ناصبت أباءه وأسلافه العداء ، والتى كرست جهودها لسحق الامبراطورية فى الغرب (٤) • وقد ظهر هذا الشعور واضـــحا خلال وجوده فى الشام ، عندما ناقش مسألة الخلافة مع القاضى شمس الدين وحقيقة مركز الخليفة عند المسلمين ، فأوضح له شمس الدين ان الخلافة العباسية تنحدر اصلا من العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانها لازالت فى عقبه ، وعندئذ اجاب فردريك بأن هذا النظام رائع ، ويفوق ــ الى حد بعيد ــ نظم أولئك الحمقى المسيحيين ، فالمسيحيون يختارون البابا زعيمهم الروحى ، الذى لاتربطه أدنى صلة بالمسيح • وهنا تحدث الامبراطور عن النزاع بينه وبين البابا ، وأحقيته فى السيادة على البابا ، اذ أنه كان متحررا من روح الحماس الدينى المتطرف السائد فى عصره من جهة ، ومتبينا عادات المسلمين من جهة أخرى ، ولهذا عنفه البابا ولامه (٥) • ومع أن المسلمين أبدوا اهتماما بالامبراطور فردريك ، الا أنه لم يترك فى نفوسهم عميق الاثر ، اذ أن مظهره خيب ظنهم ، فهو بلونه الأشقر ، وقصر النظر فى عينيه (الحول)، لايساوى

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٦٥٦ •
(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٦٥٦ •
(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص ٢٣١ •
(٤) سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى ، ص ١٩٩ •
(٥) Kantorowicz : op. cit. pp. 192—193

مائتى درهم فى سـوق الرقيق ، ولكن سلوكه المهذب ورقته قدرهما المسلمون حق التقـدير (١) ٠

واذا كانت الحروب الصليبية قد كشفت الستار عن خيبة الصليبيين ، وفشلهم فى انتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ، ليقيموا دولة مسيحية فى قلب العالم الاسلامى ، فانها رأت اجتذاب المسلمين الى اعتناق الديانة المسيحية عن طريق التفاهم والاقناع ، وبذلك وضعت الحروب الصليبية مبدأ الحركة التبشيرية المسيحية فى الشرق ٠ بيد أن تلك الحروب خلقت من بعدها العداوة والبغضاء وانزلت أعظم مأساة بالصلات بين المسلمين والنصارى فى الشرق الادنى (٢) ٠ ففى عام ١١٥٤ م أسس راهب صليبى فى الارض المقدسة رهبنة عرفت فيما بعد بالرهبنة الكرملية نسبة الى جبل الكرمل حيث كانت تقيم ومن ثم انتشر أتباعها فى سوريا ولبنان ، وأسسوا مركزا لهم فى طرابلس ، ثم تلاهم تأسيس رهبنتين جديدتين عند مستهل القرن الثالث عشر : الفرنسيسكان والدومينيكان (٣) ٠ وفى عام ١٢١٩ م زار القديس فرنسيس الاسيسـى St. Francis of Assisi مؤسس جماعـة الفرنسيسكان بلاد الأيوبيين فى مصـر ، وأجـرى مناقشـة دينية عقيمة مـع الكامل الأيوبى ، ثم بعد ذلك نزل على شاطىء عكا ، وجمع حوله مقرا رسميا للرئيس الفرنسيسكانى العام فى المنطقة ، وبعد مدة قصيرة أسست ارسالية تبشيرية فرنسيسكانية فى مدينة طرابلس ، واسس لهم ديرا فى بيروت (٤) ٠ وفى عـام ١٢٣٠ م وصلت الى دمشق ارسالية دومينيكانية ، من أتباع القديس دومينيك St. Dominic ، لتغييـر عقيـدة العـالم الاسـلامى ومن ثم تقدمت الى طرابلس وعكا وأماكن أخرى حيث أسست لها أديرة ، وقـد كتب أحد أساقفة الدومينيكان وليم الطرابلسى ـ وهـو راهب دومينيكانى عاش فى عكا ـ عام ١٢٧٠ م ، أفضل كتاب ظهر عن الاسلام فى العصور

---

(١) سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى ، ص ١٩٩ ٠

(٢) Kantorowicz : op. cit. pp. 192–193
Kantorowicz : op. cit. p. 191

(٣) عمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١١٤ ـ ص ١١٥ ٠

(٤) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٤ ـ ص ٣٩٥ ٠

الوسطى أسماه مقالة فى حالة المسلمين Tractus de Saracenorum ، يدافع فيه عن النظرة الجديدة برغبته فى ارسال بعثات تبشرية لا جنود لا سترداد الأرض المقدسة • (١) وقد أعطى القديس لويس دورا جديدا للجهود التبشيرية ، عندما أرسل عام ١٢٥٢ م الراهب الفرنسيسكانى وليم الروبركوى William of Rubruquis الى خان المغول العظيم فى آسيا الصغرى ، بأمل أن تعتنق الامبراطورية المغولية الجديدة الديانة المسيحية ومن ثم تنقض على مؤخرة المسلمين ، ويتم استرجاع فلسطين بطريقة سهلة ، ومثله أيضا البابا أنوسنت الرابع Innocent IV الذى كون عام ١٢٥٣ م أول « مجتمع تبشيرى » منذ أن سيطر على الغرب الأوروبى — فى معظم الأحوال — الرهبنة الفرنسيسكانية والرهبنة الدومينيكانية • (٢) غير أن الشكل الرئيسى فى تطوير سياسة التبشير الصليبية بطريقة تنم عن الاقناع كانت على يد ريموند لل Rymond Lull فقد كرس حياته لتنظيم العمل التبشيرى ولاقى ميتة شهيد أثناء محاولته تنفيذ مشاريعه • وهو أسبانى تعلم اللغة العربية وأجادها ، وفى عام ١٢٩٤ م ظفر بمقابلة من البابا كلستين الخامس ، قدم له خطة للتبشير بين المسلمين ، تعتمد على أن تتخذ الكنيسة العلم والمدارس وسيلة للتبشير ودرب رفاقه من الرهبان على العمل كأتباع حقيقيين للمسيح ورسله ، وأن تكون أسلحتهم لغزو الوثنى : « الحب والصلوات وانهمار الدموع » ؛ وبعد عشر سنوات من انجاز الاعداد للتبشير بالطريقة السليمة ، بدأ بنشاط لا يعرف الكلل بين التتار والأرمن فى الشرق ومسلمى شمال افريقية ، ولم ييأس على الرغم من المعوقات التى اعترضت مجهوداته ، وكان يحث البابوات والملوك على أن يوجهوا نشاطهم نحو العمل التبشيرى • وبفضل جهوده وافق مجمع فيينا عام ١٣١١ م على تأسيس ستة مدارس للغات الشرقية فى أوروبا . بيد

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٤ — ص ٣٩٥ •

(٢) C. Med. H. Vol. V p. 325
C. MedK H. Vol. V p. 325
Ibid. Loc. cit.

أن استشهاده فى ذلك العام هو الذى وضع حدا لجهوده ، ومن أجل حث الغرب الأوربى على استعادة الاماكن المقدسة ، بطريق تحويل الوثنيين (المسلمين) الى الديانة المسيحية (١) ٠

وهكذا ، فان النشاط التبشيرى الذى بدأ كرد فعل للحركة الصليبية ،واستمر خلال العصور الوسطى ، هذا النشاط احرز نجاحا كبيرا بوجه خاص فى آسيا حيث كانت البوذية عدوا أقل نشاطا وعداوة مباشرة للمسيحية من المسلمين ٠ وبمعنى أخر لم يفلح النشاط التبشيرى فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية لأن أهلها كانوا مسلحين بعقيدة سماوية تمتاز بالتفوق فى مثلهـــا وآفاقها ٠ وليس معنى ذلك أن المجهود التبشيرى قد ضاع كله ، فمن الحركة الصليبية ، ومن النشاط التبشيرى الذى انبثق منها ، ومن كلاهما تعلمتشعوب أوروبا الكثير عن الحركة الصليبية (٢) ٠

واذا كانت الحركة الصليبية التى قام بها الغرب الاوروبى قد بـــأءت بالفشل فى جانبها التبشيرى ٠ الا أن النشاط الصليبى عموما له آثـار هامة من ناحية ازدياد المحصول الجغرافى ٠ ولا أدل على ازدياد معرفة الأوروبيين بالعالم الخارجى فى عصر الحروب الصليبية من كثرة الكتابات التى وضعت فى ذلك العصر والتى حوت كثيرا من المعارف عن الشرق ٠ ومن الطبيعى أن يكون وصف الطرق المتعددة بين بيت المقدس والغرب الاوروبى هو المحورالاول لتلك الكتابات ، وبعد ذلك جاء وصف بلاد الشام ومدنها وجبالها ومسالكها وخيراتها ، على أنه باتساع النشاط الصليبى اتسعت دائرة المعرفة الجغرافية فنرى كاتبا مثل جوانفيل يكتب عن نهر النيل ومنابعه وخصـائص مياهه وفيضانه .صحيح أن تلك الكتابات لا تخلو من خرافات ، وهى الصـفة المميزة للعصور الوسطى ، الا انها ساهمت فى معرفة الغرب الأوروبى بمعلومات

---

(١) عمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٧ ٠

(٢) C. Med. H. Vol. V pp. 325—326

كان يجهلها (١) · ومما لاشك فيه ان معرفة تجار المدن الايطالية بجغرافية البحر المتوسط خلال الفترة الصليبية ، وظهور خرائط تفصيلية فى القرن الثالث عشر مثل خريطة العالم Mappa Mundi لهيرفورد Hereford التى يرجع تاريخها الى عام ١٢٨٠ م ، تتصف بعدم الوضوح ، حتى ان أوروبا تظهر فيها كمتاهة مبهمة لايسبر غورها (٢) · وببداية الحركة التبشيرية ترتب عليها ازدياد محصول المعلومات الجغرافية فى الغـــرب الاوروبى ، ذلك لأن المبشرين ارتادوا اماكن مجهـــولة للاوروبيين ، من ذلك ما رواه لنا وليم الروبركوى مبعوث لويس التاسع للخان العظيم عام ١٢٥٣ م من مغامراته فى آسيا الصغرى ، خلال بعثته التبشيرية التى قام بها (٣) · ومن الجدير بالذكر أن المغول ظهروا بمظهر عدائى للاسلام ، فى الوقت الذى لم يبد منهم قط عداء للمسيحية ، وكانت أوروبا فى القرن الثالث عشر تمنى نفسها جديا بأن تحولهم الى المسيحية ، وليس من شك فى أن المبشرين الذين أرسـلوا اليهم لم يصادفوا سوى قدرا ضئيلا من النجاح لتحقيق أطماعهم الدينية ، بيد أن الصلات التى عقدوها مع أهل البلاد كان لها الفضل فى افتتاح طـــرق جديدة الى آسيا ، فتسارع الناس الى تلك البلاد الواسعة التى تكاد أن تكون مجهولة (٤) · وفى عام ١٢٧١ م بدأ ماركو بولو رحلته الشهيرة فى آسيا ، فمر بالموصل وبغداد وخراسان حتى وصل الى بلاط خان المغول ، وهناك بعث

---

(١) C. Med. H. Vol. V pp. 326—327 &
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٢٧٩ ـ ص ١٢٨٠ ·

(٢) C. Med. H. Vol. V. p. 327

(٣) Archer : op. cit. p. 442
C. Med. H. Vol. V p. 327

(٤) شارل ديل : البندقية ، ص ٦٢ ـ ص ٦٣ ·
كان ماركو بولو أول الاوروبيين الذين توغلوا فى بلاد الصين ولمؤلفه « كتاب العجـائب » الذى قص فيـه أخبـــار رحلته التى استغرقت أربعـــة وعشرين عاما (١٢٧١ ـ ١٢٩٥ م) عبر آسيا كلها ، وكان لماركو بولو عنـــاية بما يشاهد وروح قوية للملاحظة لا يفوتها تفصـــيل ما · فسرد فى كتابه جميع الاحوال التى شـــاهدها وجميع البلاد من شواطىء آسيا الصغرى الى قلب الصين ، ومن بلاد المغول واليـابان الى سيام وكوشنشين وسومطرة وسيلان وبلاد الهند وفارس ·

به الخان الى بعض البلدان الآسيوية مثل بورما والصين والهند وغيرها ، وفى النهاية عاد ماركو بولو الى بلده البندقية عن طريق سومطرة والهند وفارس، فوصل البندقية عام ١٢٩٥ م حيث كتب رحلته التى ضمنها كثيرا من مشاهداته ومغامراته (١)٠ ومن المؤكد أن كتابات ماركو بولو قد بدأت فى الانتشار الواسع فى الغرب الأوروبى ابتداء من القرن الرابع عشر ، الامر الذى أثار ادراكا بالغا عند الغربيين بالقارة الآسيوية ، ومهما قيل عن أن المعـــارف التى أتى بها ماركو بولو ورفاقه ، لايمكن أخذها بعين الاعتبار كثمرة مباشرة للحـــركة الصليبية ، لأن الاخوة بولو كانوا تجارا وليسوا صليبيين ، فانها فى الحقيقة هى التى أسرت خيال وانتباه أوروبا ، كما ان اتساع دائرة النشاط التجارى فى ذلك العصر وحب الاستطلاع كان احـــدى الثمار المباشـــرة للحركة الصليبية (٢)٠ وعلى أية حال فقد قدم لنا ماركو بولو مثالا بديعا لروح الرجل البندقى ، اذ لم يكن بد من شجاعة فائقة ليلقى الانسان بنفسه ــ كما فعل ماركو بولو ــ فى هذه المغامرة ، مخترقا اقليما واسعا مجهولا ، ولكن ماركو بولو كان مزودا فى مغامرته بجميع صفات شعبه الباهرة ، فقد كان ذكيا شجاعا حاذقا وحكيما معا ، جمع الى روحـــه العلمية الواسعة حاسة مرهفـــة للملاحظـــة (٣) ٠

وعلى أية حال ، فالمعرفة الجغرافية كانت منحطة فى الغرب الأوروبى منذ أيام بطليموس ، وبالحملة الصليبية الاولى بدأت حقبة جديدة ، فاتسعت معرفة الرجال بالشرق ، والبلاد ، والبحار ؛ ووصلت معرفتهم الى ابعد نقطة فى الحدود الشرقية والجنوبية لقارة آسيا ، وأولئك الرحالة أول من جعلوا المعرفة الحقيقية بالشرق الاقصى شائعة فى أوروبا ، وبفضلهم بدأت المعرفة الجغرافية فى التقدم (٤) ٠

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٢٨٠ ــ ص ١٢٨١ ٠

(٢) C. Med. H. Vol. V p. 327

(٣) شارل ديل : البندقية ، ص ٦٣ ٠

(٤) Archer : op. cit. pp. 440--443

وأخيرا فان الحـــروب الصليبية امدت الغرب الاوروبى بمادة غـزيرة للخيال ، فالصليبى بدون شك يعتبر الوجه البطولى لاوروبا العصـــور الوسطى ؛ وكانت الرحلة الى الاراضى المقدسة فرصة طيبة للشاب الاوروبى أن يرى العالم على حقيقته ، بعيدا عن القيود المضنية فى وطنه من ناحية ، والمجتمع التقليدى الذى عاش فى اساره من ناحية أخرى · كما تعلم الحجاج الصليبيون من الحروب الصليبية درسا كبير من رؤية الحياة على حقيقتها فليست الحياة كما كانت تصوره لهم التقاليد الدينية المسيحية ، فضلا عن أنهم أدركوا أن أوروبا والمسيحية ليساهما المحور الذى يدور حوله العالم فقط (١) · لقد وجدوا رجالا نشيطين ، متدينين ، غير وثنيين ، شرفاء ، شجعان ، لايقلون انسانية عنهم ؛ ومن المستحيل أن يذهب مثل ذلك النوع من الدرس هباء ، اذ انها حولت افكار الرجال فى القرن الثانى عشـــر الى الانسانية العامة ، والى تصور جديد للجمال والحق (٢) ·

* * *

(١) Emerton Mediaeval Europe, pp. 393–394

(٢) Ibid. p. 394

ثانيا ـ التفاعل الاجتماعى

لم تكن الحروب الصليبية مجرد معارك دموية متصلة كما يتضح لنا من اسمها ، وانما تخللتها علاقات انسانية عديدة نبتت فى أوقات السلم ، وأوقات السلم هذه كانت أطول من فترات الحروب ، وأعطت الفرصة للتدخل والاختلاط الاجتماعى بين الفريقين ٠

ومن الملاحظ أن الصليبيين بعد انقضاء الجيل الأول منهم ، الذى عاصر بلدوين وجوسلين الاول (ت ١١٣١ م) ، نسوا تعصبهم الدينى الأعمى ، ولم يسعوا الا الى المحافظة على ما بأيديهم من أراض وأمـــلاك ٠ صحيح أن العداوة السياسية ظلت قائمة بين المسلمين والصليبيين ، غير أن العلاقات الودية استمرت أيضا بينهما ؛ ومن المحتمل أن أوربان الثانى كان سينتابه الفزع ، لو علم أنه خلال جيل واحد عقب الاستيلاء على بيت المقدس ، سيتنقل التجار المسلمون فى حرية خلال الاماكن الواقعة تحت سيطرة الفرنجة (١) ٠ أما جموع الصليبيين الذين كانوا يفدون من الغرب الأوروبى ، فكانوا أشد الناس غلظة ، جفاة ، اتصفوا بالتعصب الدينى ؛ وقد فطن أسامة بن منقذ الى هذه الحقيقة فقال : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى اخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين (٢) » ٠ ودلل أسامة على رأيه بقصة طريفة ، فيروى أنه اعتاد أن يصلى فى المسجد الاقصى ، وقد صار بيد الداوية بصفتهم أصدقائه ، وانهم كانوا يخلون له المسجد الصغير ليصلى فيه ؛ ولكن حدث ذات يوم أن دخل أسامة المسجد الأقصى للصلاة كعادته ، فلم يكد يقف ويكبر ، حتى هجم عليه أحد الفرنجة ورد وجهه الى الشرق وقال له : « كذا صل ! » ولكن بعض الداوية أبعدوا ذلك الفرنجى عن أسامه، وعاد الى الصلاة ، وعندما عاود الفرنجى فعلته أخرجه الداوية من المسجد ،

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 324

(٢) الاعتبار ، ص ١٣٤ ٠

واعتذروا اليه وقالوا له : « هذا غريب وصل من بلاد الفرنج فى هذه الأيام ، وما رأى من يصلى الى غير الشرق (١) » ٠

على أن العلاقات الودية التى ربطت بين المسلمين ، خلقت حياة اجتماعية بين الفريقين ، هى فى الواقع مزيجا من الحياتين الشرقية الاسلامية والغربية الصليبية ، تداخلت احداهما فى الأخرى ، وأثرت كل واحدة منهما فى الأخرى ٠ فلا غرابة أن يكتسب العديد من الصليبيين الذوق الشرقى فى الاطعمة والأشربة والزى الشرقى تشبها بالمسلمين ٠

والواقع أن النبلاء والامراء وكبار السادة الاقطاعيين ، كانوا فى حياتهم ـ فيما عدا التجارة والحرب ـ أميل للدعة والتراخى ، دفعهم الى ذلك جو دافىء ، وفراغ كبير ، وايثار للراحة ، وتوفر ضرورات الحياة وكمالياتها ؛ ومن ثم سكنوا القصور الفخمة على الطراز السورى ، التى تألفت فى العادة من طابقين فى وسطها من الداخل نافورة تتدفق فيها المياه ، كسيت نوافذها بالزجاج الملون ، وحليت أرضلها بالموزايكو (٢) ٠ وأضحى من وسائل تسلية كبار الصليبيين استخدام الفتيات الراقصات ، والولع بصيد الطيور ؛ حتى فى جنائزهم عملوا على استخدام النائحات (النادبات) المحترفات (٣) ٠

واقلعوا عن لباسهم الاوروبى ، وتعلقوا بالازياء والملابس الشرقية التى كانت أدعى الى الراحة ، فاذا لم يكن الفارس فى عدته وسلاحه ارتدى برنسا من الحرير ، فوق درعه سترة من الكتان لوقاية الزرد من حرارة الشمس ، كما

---

(١) الاعتبار ، ص ١٣٤ ـ ص ١٣٥ ٠

(٢) Small : Crusading Warfare.p . 43

Longnon : Les Français d'Outre-Mer en Moyen-Age. pp. 114—115

حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٥٣ ـ ص ١٥٤ ٠

(٣) Small : op. cit. p. 43

لويس شيخو : بيروت تاريخها وآثارها ، ص ٧٠ ٠

جعل على خوذته كوفية على نحو ما يفعل العرب (١) · وأقبل الصليبيون على الاقمشة الموصلية والبغدادية والدمشقية والشرقية والبسط والسجاد ، وأخذوا عن العرب اطالة الملابس وتحليتها بالجواهر حسب مكانة المرء فى قومه واختلاف المراتب ، واطلق البعض منهم لحاه تشبها بالشرقيين ، واستعمل النعال التى يستعملها المسلمون فى بيوتهم ، حتى أن بلدوين ملك بيت المقدس (١١٠٠ ـ ١١١٨ م) ، استبدل ثيابه الغربية بأخرى شرقية ، وأرسل لحيته، وتناول طعامه على بساط متربعا على الأرض على الطريقة الشرقية ، وبلغ الامر بتانكرد صاحب انطاكية (ت ١١١٢ م) أن سك النقود وعليها صورته فى زى عربى (٢) · كما أن الصعوبات التى احاطت بهنرى دى شامبنى ملك بيت المقدس ، جعلته يحرص على كسب ود صلاح الدين ، فأرسل اليه « يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعه » ، وقال له : « أنت تعلم أن لبس القبا والشربوس عندنا عيب، وأنا البسهما منك محبة »، وكان أن أرسل اليه صلاح الدين خلعة سنية منها القبا والشربوش ، ففرح بهما الملك الصليبى وارتداهما فى عكا (٣) · أما السيدات الصليبيات فاتبعن الزى الشرقى التقليدى ، وارتدت الواحدة منهن قميص مرسل طويل الى القدمين ، وسترة قصيرة أو رداء بكمين ، وكلها موشاة بخيوط الذهب ، وأحيانا الجواهر ، وفى الشتاء ارتدت المرأة الصليبية الفراء مثلما يفعل زوجها ، وضربت الخمار على وجهها ، واذا خرجت من الدار اتخذت الحجاب ، شأن النساء المسلمات المحتشمات (٤) ·

وترتب على طول اقامة الصليبيين بالشام ومجاورتهم للمسلمين اكتسابهم الكثير من الذوق الشرقى والاطعمة والاشربة ، لاسيما مايتعلق بالسكر

---

(١) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ ·
(٢) جروينباوم : حضارة الاسلام ، ص ٨٢ ·
نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٧٠ ـ ص ١٧٢ ·
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٨ هـ
(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ ·
نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٧٢ ·

والتوابل • ولقد اشرنا من قبل الى أن الفرنجة عرفوا السكر لأول مرة فى حياتهم فى بلاد الشام ، ليحل محل عسل النحل الذى لم تعرف أوروبا وسيلة غيره لتحلية الطعام وعمل الحلوى • وصارت القهوة العربية شراب الكثيرين • وثمة قصة يرويها أسامة بن منقذ نستشف منها التحول فى ذوق الصليبيين فى ناحية المأكل والمشرب ، وخلاصة تلك القصة أن احد اصحابه ذهب الى مدينة أنطاكية الصليبية ، فنزل فى بيت احد الفرسان الصليبيين الاوائل ، الذين أتوا ضمن الأفواج الصليبية الأولى ، ثم أعفى من الخدمة العسكرية ، وصار له ملك يتعيش منه • وعندما نزل صديق أسامة ضيفا على الفارس الصليبى ، أحضر له الاخير « مائدة حسنة وطعاما فى غاية النظافة والجودة » • ولكن صديق أسامة امتنع عن الأكل ، وعندئذ قال له الفارس الصليبى : « كل طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الافرنج ، ولى طباخات مصريات ما آكل الا من طبيخهن ، ولا يدخل دارى لحم خنزير (١) » •

ويرى البعض أن الفرنجة كان من المحتم عليهم أن يحاولوا المواءمة مع البيئة الجديدة ، فلم يكن بوسعهم ان يتجنبوا الاتصال بجيرانهم ورعاياهم المسلمين ؛ وبالاضافة الى ذلك ينبغى تقدير حالة المناخ ببلاد الشام ، فالشتاء فى فلسطين والشام قارس البرودة ، ويكاد يضارع فى برودته اللاذعة ما هو مألوف فى الغرب الأوروبى ، غير أنه قصير الأمد • أما الصيف ، فقد تميز بالطول وشدة الحرارة ، الأمر الذى يناقض الصيف فى أوروبا ، لذلك لم يلبث الفرنجة أن اتخذوا ما هو بعيد عن طباعهم وعاداتهم فى الغرب الاوروبى من الملابس والاطعمة والساعات التى يلزمون فيها دورهم (٢) •

ومن العادات التى أعجب بها الفرنجة ببلاد الشام الاستحمام فى الحمامات العربية ، فتأثروا بها ، والمعروف أن وظيفة الحمام فى مجتمع العصور الوسطى لم تقتصر على الاستحمام ، بل امتدت الى الحلاقة وازالة الشعر من الجسد ،

---

(١) الاعتبار ، ص ١٤٠ •

(٢) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٥٠٩ •

وهى العملية التى قام بها الحلاق بالنسبة للرجال والبلانـــة بالنسبة للنساء (١) • وقد اتخذت الحمامات أيضـــا نواد يجتمع فيها المستحمون لتناول المشروبات الساخنة ولتجاذب الاحاديث ، فى جو شرقى معبق بالدفء وأنواع الطيب ، بل لانغالى اذا قلنا أن كثيرا من المشكلات والصفقات قد تحل وتبرم فى هذه الحمامات (٢) • ولم يلبث أن أدى اعجاب الصليبيين بالحمامات الى ترددهم عليها لنظافة الجسد ، بل ان البعض منهم كان لايرى غضاضة فى احضار امرأته معه الى الحمام ، وأن يطلب من الحلاق العربى فى الحمام ازالة شعرها (٣) • وعندما أتى جوانفيل الى الاراضى المقدسة صحبة سيده لويس، أخبره تابعه أنه تمكن من ايجاد منزل يأوى اليه قريب من الحمامات ، حيث يستطيع ازالة ما علق به من الاوساخ ، وما تراكم من العرق أثناء وجوده فى الأسر ، ولما أقبل الليل دخل جوانفيل الحمام ، ولكن اعتراه هبوط فى القلب واغماء ، فأخذوه فى مشقة كبيرة من الحمام وسجوه فى فراشه (٤) • والعجيب فى أمر الصليبيين ، انهم كانوا ينكرون شد المئزر على الوسط فى الحمام ، وبذلك أمكن التمييز بين المسلمين والصليبيين من مرتادى الحمامات ، وثمة قصة طريفة يرويها أسامة بن منقذ ، فحواها أنه كان عندهم رجل حمامى يقال له سالم من أهل المعرة فى حمام لوالده ، وقد روى هذا الحمامى لاسامة قائلا : « فتحت حماما فى المعرة اتعيش فيها • فدخل اليها فارس (صليبى) منهم ، وهم ينكرون على من يشد فى وسطه المئزر فى الحمام ، فمد يده فجذب مئزرى من وسطى رماه (٥) » •

ومن النواحى الطريفة التى تمثل الحياة الاجتماعية عند الفرنجة فى بلاد

---

(١) سعيد عاشور : أضواء على الحروب الصليبية ، ص ١٠٨ •
(٢) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ١٥٤ •
(٣) أســـامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٦ ـ ص ١٢٧ •
(٤) حسن حبشى : القديس لويس (مذكرات جوانفيل) ، ص ١٨٦ •
(٥) الاعتبار ، ص ١٣٦ •

الشام حفلات الزواج عندهم ، ويدعى اليها المسلمون والمسيحيون على السواء ، ويختلط فيها الرجال بالنساء (١) • وقد حضر ابن جبير (٢) • احدى هذه الحفلات بمدينة صور ، فترك لنا وصفا دقيقا عنها ، فقد ذكر ان الرجال والنساء قد اصطفوا صفين عند باب العروس ، وراحت الأبواق والمزامير وجميع آلات اللهو تضرب بين يديها ، حتى خرجت بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، والعروس فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب ، وعلى رأسها عصابة من ذهب ، قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، ومثلها على لبتها ، وهى رافلة فى حليها وحللها ، تمشى مشى الحمامة ، وامامها جلة من رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم ، ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى انفس الملابس ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماطين يتطلعون فيهن ، ولاينكرون عليهم ذلك. فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة • وقد تأذى شعور ابن جبير من رؤية النساء فى اختلاط مع الرجال ، واستعاذ بالله من ذلك •

واذا كان الرحالة ابن جبير قد استنكر اختلاط الرجال مع النساء ، فان الغيورين على الدين الاسلامى استنكروه ايضا ، ورأوا فيه بعدا عن تقاليد المسلمين ، وانحرافا عن الشريعة الاسلامية • ولهذا دهش المسلمون عندما رأوا العادات الصليبية التى خالفت تقاليدهم • من تلك العادات حرية الاختلاط التى رآها اسامة بن منقذ فى اوساطهم ، ورأى فيها فظاعة لم يألفها المسلمون ، وصاروا فى نظره « وما فيهم غيره ولا نخوة (٣) » ، وليست لديهم غيرة جنسية ولا يشعر الرجل منهم بالغيرة على امرأته ، ولا يحرص على الا ينفرد بها سواه، ويكون الرجل منهم (الفرنجة) يمشى هو وامرأته يلقاه رجل آخر ، يأخذ

---

(١) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٦١ •
(٢) الرحلة ، ص ٢٧٨ ــ ص ٢٧٩ •
(٣) الاعتبار ، ص ١٣٧ •

المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى (١) » ، ويروى أسامة بن منقذ قصة أخرى طريفة عن عدم الغيرة عند الرجل الصليبى ، وهى تبعث على الدهشة ، وخلاصتها أن احد الصليبيين دخل بيته ، « ووجد رجلا مع امرأته فى الفراش ، فقال له : أى شىء أدخلك الى عند امرأتى ؟ » ، قال : «كنت تعبان ودخلت استريح » • قال : « فكيف دخلت الى فراشى ؟ » قال : « وجدت فراشا مفروشا فيه » • قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » قال : « الفراش لها • فهل كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ » • وقال : « وحق دينى ، ان عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » ، ويعلق أسامة على موقف الزوج قائلا : « فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته (٢) » •

وعلاقات المودة بين المسلمين والصليبيين فى أوقات السلم ، أدت الى نشوء صداقات بين رجال من الفرنجة وآخرين من المسلمين ، فهم فى السلم « اخوة » ، حتى لنرى رجالا من الفريقين ينادى كل منهما صاحبه « يا أخى » ، وذلك لتمكن صلات المودة والمحبة بينهما • ونستدل على ذلك من قصة الصداقة التى قامت بين أسامة بن منقذ واحد الفرسان الصليبيين ، وفى هذا يقول : « كان فى عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم افرنجى ، قد وصل من بلادهم يحج ويعود • فأنس بى وصار ملازمى يدعونى أخى ، وبيننا المودة والمعاشرة فلما عزم على التوجه فى البحر الى بلاده قال لى : يا أخى انا سائر الى بلادى وأريد أن تنفذ معى ابنك ، (وكان ابنى معى وهو ابن اربع عشرة) الى بلادى يبصر الفرسان ، ويتعلم العقل والفروسية (٣) • ولكن أسامة أجاب بلباقة ولطف أن جدته شديدة الكلف به ، فلا يستطيع ـ لهذا السبب ـ ان يلبى طلب صديقه الفارس ؛ ولم يتمالك فى نفسه عن ابداء دهشته من هذا الطلب « اذ كيف يعقل أن يطلب نصرانى مثل هذا الطلب من رجل مسلم (٤) •

---

(١) أسما بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٥ •
(٢) الاعتبار ، ص ١٣٦ •
(٣) الاعتبار ، ص ١٣٢ •
(٤) نفس المكان •

ومن المدهش أن علاقات المودة بين الفريقين الاسلامى والصليبى ، لم تتم فى اوقات السلم فقط ، ولكنها حدثت فى أشد أوقـــات الصراع الدموى بينهما • فاذا حدث أن وقف الجيشان وجها لوجه مدة طويلة ، ولم تسـفر المواجهة عن نتيجة ما ، سئم الرجال القتال وتبادلوا الفكاهة والطرف ، الى أن يعود القتال من جديد • من ذلك ما رواه ابن شداد (١) عندما طال القتال أمام عكا عام ١١٩٠ م « أنس البعض بالبعض بحيث أن كانت الطائفتان (المسلمون والصليبيون) تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة » • وفى يوم سئم الفريقان من القتال ، فقالوا : الى كم يتقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ ، نريد أن يصطرع صبيان : صبى منا وصبى منكم ، فأخرج صبيان من البلد (المسلمين) الى صبيين من الافرنج ، واشتد الحرب بين الصبيان ، فوثب أحد الصليبيين المسلمين الى أحد الصليبيين الكافرين (الصليبيين) ، فاختطفه وضرب به الأرض وقبضه أسيرا ، واشتد به ليأخذه فاشتراه بعض الافرنج بدينارين ، وقالوا : « هذا اسيرك حقا ، فاخذ الدينارين وأطلقه ، وهـــذه من نوادر القتال (٢) » • وشتان بين تلك الروح التى سادت العلاقات بين المســلمين والصليبيين فى نهاية القرن الثانى عشر ، وبين ما كان عليه الوضع عند مجىء الحملة الصليبية الاولى فى نهاية القرن الحادى عشر (٣) • ومن الومضات الانسانية التى تخللت القتال بين المسلمين والصليبيين ، ما حدث عندما عسكر السلطان صلاح الدين الأيوبى بجنوده أمام أسوار حصن الكرك فى نوفمبر عام ١١٨٣ م ، فقد تصادف الاحتفال بعقد قران داخل الحصن ، وبينما تعرضت أسوار الحصن للقذف بالحجارة ، استمر الاحتفال قائما ، فلم يقطع الرقص والغناء ، بل حدث أن اعدت ام العريس صحونا من طعام العرس ،وبعثته

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٠٨

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠٨ ـ ص ١٠٩ •
ابو شامه : الروضتين ، ج ٢ ص ١٤٣ •

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٥٩ •

بها الى صلاح الدين · وفى مقابل ذلك التصرف ارسل صلاح الدين يسأل بأى الابراج ينزل العروسان ، ثم اصدر اوامره بالا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار ، وفيما عدا ذلك لم يخفف صلاح الدين جهوده الحربية (١) ·

وثمة مشروع زواج كان سيعمل على تتويج علاقات التآلف والمـــودة بين المسلمين والصليبيين ، ذلك المشروع هو زواج الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبى أخى صلاح الدين ، بالاميرة الانجليزية جوانا أخت ريتشارد قلب الأسد · ففى الوقت الذى فتح فيه ريتشارد باب المفاوضات مع صلاح الدين ، اناب الاخير اخاه الملك العادل فى مفاوضة ريتشارد ، وقد تعثرت تلك المفاوضات بسبب تمسك ريتشارد على ارجاع مملكة بيت المقدس الى ما كانت عليه قبل موقعة حطين (٢) · وليس ابلغ من اجابة صلاح الدين على ذلك بقوله « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا اعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا تتصور ان ننزل عنه ، ولا نقـــدر على التفريط بذلك بين المسلمين (٣) » · ولم يقنط ريتشارد من تمسك صلاح الدين وصلابة رأية ، رغم أن فكرة تحقيق السلام بالطرق الدبلوماسية جديدة على العصور الوسطى ، والجديد دائما يتطلب الصبر والحكمة ، ومعالجة الموضوع من زوايا أخرى وبطريقة جديدة ، ويكون عمل العاطفة فيها أقوى من العقل (٤) · فأنفذ ريتشارد رسوله الى الملك العادل يوم الاثنين ٢٠ اكتوبر عـام ١١٩١ م (٢٩ رمضان ٥٨٧ هـ) يقترح عليه زواجه من أخت ريتشارد ، أرمل وليم الثانى ملك صقلية ، على شرط أن يكون القدس وما مع المسلمين للعادل ، وعكا وما مع الصليبيين لجوانا · وأيضا على شرط ان يحكم العادل البلاد وتقيم زوجته جوانا فى القدس ، وبصحبتها القسس والرهبان فقط ، وأن يرضـى

---

(١) رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧١١ ـ ص ٧١٢

(٢) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٤٤ ـ ص ٢٤٥ ·

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٨٢ ـ ص ١٨٣ ·

(٤) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ٣٨ ـ ص ٣٩ ·

العادل قادة الصليبيين الشرقيين وهيئتى الداوية والاسبتارية ببعض القرى(١) ٠ ومن الطريف أن الملك العادل رحب بذلك الحل ترحيبا كبيرا ، « ورأى فى ذلك عين الصواب » ، وشاور أخاه السلطان صلاح الدين ، فوافقه وقبل الفكرة ورحب بها (٢) ٠ ولم تلبث أن ظهرت العقبة الكأداء فى سبيل تنفيذ هذا المشروع، ولكنها لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد قلب الأسد وأنما أتت من جانب الاميرة جوانا التى أبت أن « تمكن مسلما من غشيانها » كذلك طلب ريتشارد من الملك العادل أن يعلن اعتناقه للديانة المسيحية (٣) ٠ ويروى أبو شامة (٤) أن بعض الفرنجة خوفوا أخت ريتشارد من عاقبة الزواج من العادل ، وعنفوها وقالوا لها مامعناه : « هذه فضيحة فظيعة ، وسبة شنيعة ، وقطع على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة » ، وعندئذ عرف العادل أنها خديعة وصرف النظر عن الموضوع ٠ ويرى لين بـــول أنة ليس ثمة شك فى أن مشروع زواج العادل من جوانا ، يرجع الى عامل الصداقة الحميمة المتبادلة بين ريتشارد والعادل (٥) ٠ وليس أدل على الصـــداقة المتبادلة بين العادل وريتشارد ، أنهما كانا يجتمعان ، ويتجاريان حديث الصلح ، وفى احدى المرات طلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين ، فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له ، فاستحسن ذلك (٦) ٠ وعلى أية حال ، فان فكرة زواج العادل من الاميرة الانجليزية فكرة طريفة وجديرة بالذكر ، فهى توضـــح مـدى تطور العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، وتدل أيضا على التقـــارب السياسى والحضارى والفكرى بين المسلمين والصليبيين فى الشام من جهة ، وروح التسامح التى أخذت تسود فى بعض تصرفات الفريقين من جهة أخرى (٧) ٠

---

(١) ابن شداد : النوادر ، ص ١٩٥ ٠
ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ ٠
(٢) أبو شامه : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ ٠
(٣) ابن شداد : النوادر ، ص ١٩٦ ٠
(٤) الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ ٠
(٥) Lane-Poole : Saladin. pp. 329—330
(٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ ٠
(٧) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٥٢ ــ ص ٢٥٣ ٠

وقد وجد المسلمون أن أساليب الصليبيين فى معاقبة المجرمين والمذنبين بدائية ، وذلك اذا قورنت باقامة الحدود عند المسلمين طبقا للشريعة الاسلامية أو اللجوء الى احكام القضاء اذا ظهر نزاع أو خلاف بين اثنين على موضوع ما • من ذلك أن اسامة بن منقذ زار نابلس ، واسترعى نظره محاكمة فرنجية ، كان سببها أن حرامية (١) من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فالقيت التهمة على رجل من الفلاحين ، فما كان منه الا أن لاذ بالفرار ، فأمر الملك فولك (١١٣١ ــ ١١٤٢ م) بالقبض على أولاده ، فعاد الرجل وقال للملك : « انصفنى أنا أبارز الذى قال عنى انى دللت الحرامية على القرية (٢) »• وعلى ذلك امر الملك صاحب القرية المقطع أن يحضر من يبارز هذا الرجل ، وحرصا من السيد الاقطاعى على فلاحيه خشية أن يقتل منهم واحد مما يؤدى الى خراب فلاحته ، استدعى حدادا شابا قويا ، ليبارز الرجل الآخر وهو شيخ ولكنه قوى النفس ، وتضارب الاثنان ، حتى شعر الشيخ بالاعياء ، فوقع ، فبرك عليه الحداد يداخل اصابعه فى عينيه ، ولا يتمكن من كثرة الدم فى عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله • ويعلق أسامة على طريقة المحاكمة قائلا : «وهذا من جملة فقههم وحكمهم» (٣)• واذا كان من عادتهم المبارزة للفصل فى من هو على حق ، فقد كان من عادتهم رمى المتهم فى الماء للفصل فيما اذا كان مذنبا أو بريئا• فيروى اسامة قصة سمعها فى نابلس عن شاب كانت أمه مزوجة لرجل افرنجى ، فقتلته • فاتهموه بالقتل وأجروا له محاكمة • فأتوا بتية عظيمة وملاوها ماء ، وكتفوا المتهم وربطوا حبلا فى كتفيه ثم رموه فى البتية (٤) وكان فى رأيهم اذا كان المتهم بريئا غاص فى الماء وبذلك يرفعوه بالحبل حتى لا يموت فى الماء ، وان كان مذنبا لايغوص فى الماء ، ولهذا حرص الشاب على أن يغوص عندما رموه فى الماء ، ولكنه لم يستطع ، ومن ثم ثبتت عليه التهمة ، ووجب الحكم عليه ، فكحلوه (٥) •

---

(١) أنظـــر ص ١٧٠ •

(٢) الاعتبـــار ، ص ١٣٨ •

(٣) الاعتبـــار ، ص ١٣٨ ــ ص ١٣٩ •

(٤) الاعتبار ، ص ١٣٩ •

(٥) الاعتبار ، ص ١٣٩ ــ ص ١٤٠ •

وعلى عصر الحروب الصليبية ، اتضحت جلية المواقف البطولية والانسانية والاخلاقية لتصرفات الحكام المسلمين • فاذا كانت الفروسية سواء كانت عربية أو غربية ، تتضمن الشجاعة والاتيان باعمال البطولة والكرم والسماحة والعفو عند المقدرة واحترام المرأة والوفاء بالعهد وحماية الضعفاء ، وهذه كلها صفات خلقية نبيلة ، فثمة فوارق واضحة بين تصرفات حكام المسلمين والحكام الصليبيين •

ويفخر التاريخ العربى والاسلامى بصلاح الدين الايوبى ، بوصفه الشخصية البارزة فى تاريخ الحروب الصليبية ، والبطل الذى لم يتوان فى العمل من أجل تحرير بيت المقدس من ربقة الصليبيين ؛ كذلك يفخر الاوروبيون بشخصية ريتشارد قلب الاسد ، ويرسمون هالة حوله ، بصفته البطل الذى اتى من الغرب الاوروبى ليقضى بضع سنوات فى ارض الشام ، اظهر فيها من الجلد والمثابرة فى محاربة المسلمين مالم يظهره ملك آخر من ملوك الغرب الاوروبى الذين اسهموا فى الحركة الصليبية (١) •

والواقع ان ما قام به ريتشارد قلب الاسد من أعمال فى بلاد الشام ، وما كان بينه وبين صلاح الدين الايوبى من علاقات حربية وعلاقات سلمية ، انما جذبت انظار المعاصرين وغير المعاصرين من المؤرخين • وقد زخرت كتب التاريخ بما تحويه من مقارنة شيقة بين فروسية الشرق ممثلة فى صلاح الدين ، وفروسية الغرب ممثلة فى ريتشارد قلب الاسد (٢) • ويظهر التناقض واضحا بين تصرفات صلاح الدين وريتشارد ، فى العمل الذى قام به الأخير عندما دخل عكا عام ١٢٩١ م ، فقد نسى شروط الامان التى منحها لحاميتها المسلمة ، ورمى بشروط الاتفاقية التى عقدها مع المسلمين عرض الحائط ، فقبض على من بداخل عكا من المسلمين « وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم » ، وساقهم الى تل قريب حيث « قتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف » ، واخوانهم

---

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٣٩ •

(٢) سعيد عاشور : أضواء على الحروب الصليبية ، ص ٨٣ •

المسلمون عن بعد يشاهدون رقابهم تتساقط ولا يدرون ماذا يفعلون لبعدهم عنهم (١) • وقد وصف جروسيه هذا العمل بالبربرية التى لم يسمع بمثلها ، اذ أن ريتشارد ارتكب ما ارتكبه فى رباطة جأش ، وشعور متمالك (٢) • ولاشك أن سلوك ريتشارد يتناقض مع سلوك صلاح الدين عندما سقطت مدينة بيت المقدس فى أيدى المسلمين ، فقد أمر صلاح الدين الا يتعرض دار من الدور للنهب ، والايحل مكروه باحد ، وكلف رجاله للطواف بشوارع المدينة لمنع أى اعتداء يقع على المسيحيين (٣) • وفوق ذلك أظهر صلاح الدين من الرحمة والشفقة الزائدة عن الحدود ، وأحسن الى الفقراء والارامل وأيتام القتلى ، واعتنى بالمرضى والعاجزين من الصليبيين ، أما الذين خرجوا من بيت المقدس من الصليبيين ، فقد اضحوا فى حالة يرثى لها من الارهاق والعذاب ، يلتمسون المعونة والمساعدة من الحكام الفرنجة ، ولكن الاخيرين كانوا يطردونهم ، ويوصدون الأبواب فى وجوههم (٤) •

والتناقض واضح بين ريتشارد وصلاح الدين ، فالاول تميز باخلاقه المتقلبة ، وطباعه الحادة ، والشجاعة ، أما صلاح الدين الذى يعتبر علما من أعلام التاريخ الاسلامى ، فقد تميز بالشجاعة والأمانة والعدل والفروسية النبيلة ، وكان ندا مناسبا لخصمه ريتشارد ، خافه الفرنجة واحترموه فى نفس الوقت (٥) •

وقد لاحظ وليم الصورى أنه كلما ازداد صلاح الدين قوة ، اشتدت عداوته وخصومته للصليبيين ، الامر الذى أدى الى اثارة الرعب بينهم ؛ واذا استشير كان حكيما ، شجاعا فى الحروب اذا نهض لها ، بالغ السخاء اذا اعطى (٦)•

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩ •
(٢) Grousset : op. cit. Vol. III p. 61
(٣) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ •
(٤) Grant : The History of Europe. Part II p. 534
(٥) Thompson : The Middle Ages. p. 582
(٦) William of Tyre : History of the Deeds. Vol. 11 pp. 407—408

وليس ابلغ من الدرس الذى تعلمه رينتشارد من صلاح الدين ، عندما أوفد الاول رسولا يحمل رسالة الى صلاح الدين يطلب الاجتماع به ، فرد عليه صلاح الدين بقوله : « ان الملوك لايجتمعون الا عن قاعدة ، ولايحسن فيهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة (١) » . ويبدو أن صلاح الدين رأى أن هدف رينتشارد من الاجتماع هو المراوغة والمماطلة ، والحصول على مكاسب من المسلمين ، أما الاجتماع فى نظر صلاح الدين فمعناه التفاهم بأسلوب واضح صريح من أجل عقد سلام بينهما قائم على الحق والعدل ، بالاضافة الى جمع شمل المسلمين . ولذلك آثر صلاح الدين أن يكون أخيه العادل وسيطا بينهما، ينقل وجهة نظر كل منهما الى الآخر . صلاح الدين بطبعه كان رجل سلام وحضارة ، ولو أنه كان ملكا فى غير تلك العصور ، لكان كالمأمون وأمثاله ، ولكنه أضطر بحكم عصره أن يجعل حياته للكفاح والنضال (٢) .

ولا أدل على نبل اخلاق صلاح الدين وسعة كرمه فى معاملة خصومه من أنه عندما علم بمرض خصمه رينتشارد قلب الأسد ، وبأنه فى حاجة الى بعض الفاكهة والثلج ، بادر بارسال الكمثرى والخوخ والشراب اليه ، ولم يكد يسترد صحته حتى عاود الحرب ضد صلاح الدين (٣) . وما قام به صلاح الدين من صنيع لعدوه رينتشارد ، يدل على انه كان انسانا قبل أن يكون محاربا ، غلبت عليه صفة التسامح والكرم ، ورأى أن الواجب الانسانى يحتم عليه مد يد المساعدة اليه .

وعلى اية حال ، فان صلاح الدين الايوبى كان صفحة رائعة فى تاريخ الحروب الصليبية ببلاد الشام ، ويكفى ان الشهرة الأسطورية التى عرفت بها فروسيته تركت انطباعا فى الغرب الاوروبى ، حتى أن العديد من الفرنسيين

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٠ ـ ص ٤١١ .

(٢) محمد فريد أبو حديد : تاريخ صلاح الدين وعصره ، ص ١١٠ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣١ ـ ص ٢٣٢ .

Grousset : Histoire des Croisades. Vot. III p. 61

لم يترددوا فى اعطاء اسم صلاح الدين لأطفالهم ، فضلاً عن أنه صار احد الاسماء لعائلة فرنسية (١) ٠

وفاضت المصادر المعاصرة بمروءة صلاح الدين التى عمت الأعداء من الصليبيين ، فيروى المؤرخون فى حوادث عام ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) أن مسلما دخل خيام الفرنج ليلا ، واستولى على طفل رضيع ، فلما اكتشفت الأم ضياع ابنها ، طار عقلها ، فنصحها البعض من الصليبيين بالذهاب الى صلاح الدين لما عرف عنه من شفقة ورحمة ، ولما رآها صلاح الدين تبكى فى ألم وحرقه ،وتدق على صدرها ، وتمرغ وجهها فى التراب سأل « عن قصتها ، فأخبروه ، فرق لها ، ودمعت عينيه ، وامر باحضار الرضيع ، فمضوا ووجدوه قد بيع فى السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشترى ، واخذه منه ، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، وبكت بكاء شديدا ، وضمته الى صدرها ، والناس ينظرون اليها ويبكون (٢) » ، ويعلق ابن شداد (٣) على هذه القصة قائلا : « فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشرية ٠ اللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والاكرام » ٠

وثمة شخصية صليبية ، كانت صورة للفارس اللص على عهد الحروب الصليبية ، ذلك هو رينودى شاتيون Reginald de Chatillon الذى عرف فى المصادر العربية باسم أرناط ، ووصف بأنه شره وسافل ومتوحش ومتعصب دينى (٤) ٠ ولم يكن ارناط الذى أضحى حاكما لحصن الكرك الصليبى ، من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ، ويتمسكون بمبادىء الفروسية ، وانما

---

(١) Longnon : Le Français d'Outre-Mer en Moyen Age. P. 157

(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ ـ ص ١٨٤ ٠
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١١ ٠
مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ ٠

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٣٢ ـ ص ٣٣ ٠

(٤) King : The Knights Hospitallers. p. 111

كان لايصلح الا للسلب والنهب وشن الاغارات على الأبرياء والمسالمين (١) .
وقد وصفه المؤرخ أبو شامة (٢) قائلا أنه « أغدر الفرنجية وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمـــة ، والايمان المبرمة، وأنكثها وأبخثها » . وقد عرف عنه نقضه للعهود ، فكثيرا ما قطع الطريق على القوافل التجارية المتجهة من مصر وغربى شبه الجزيرة العربية الى الشام ، وفى عام ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) قطع الطريق على قافلة ضخمة كانت فى طريقها من مصر الى الشام ، فأخذها بأسرها . ولما ناشده أفراد القافلـــة أن يطلق سراحهم ، وذكروه بعهود الامان والصلح التى بينه وبين المسلمين ، رد عليهم ردا يتضمن الاستخفاف والسخرية بالرسول صلى الله عليه وسلم وقال : « قولوا لمحمدكم يخلصكم » ، وبلغ ذلك السلطان ، فحملته الغيرة على الدين الاسلامى أنه نذر ان ظفر به قتله (٣) .

ولما انتصر صلاح الدين على الصليبيين فى موقعة حطين عام ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، لم يلبث أن سيقت اليه الأسرى ، فكان من بينهم الملك جاى لوزجنان وأرناط صاحب الكرك ، وجيرارد ريدفورت مقدم الداوية ، فاستقبلهم صلاح الدين فى مخيمه استقبالا حسنا ، وأجلس الملك الى جانبه ، واخذ يذكر ارناط بأفعاله التى أضرت المسلمين ، وقال له : « كم تحلف وتحنث ، وتعهد وتنكث ، وتبرم الميثاق وتنقض ، وتقبل على الوفاق ثم تعرض ، فقال الترجمان عنه أنه يقول : « قد جرت بذلك عادة الملوك (٤) » . وكان الملك يلهث من شدة الظمأ ، وأحس بالرعب ، وعندئذ أمر صلاح الدين بتقديم اناء به ماء مثلوج للملك جاى ، فشرب منه ، وأعطى ماتبقى لأرناط فشرب ، وهنا غضب السلطان، ووجه كلامه للملك قائلا : « لم تأخذ فى سقيه منى اذنا ، فلا يوجب ذلك لهمنى

---

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٦٤ .
(٢) الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٥ .
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٩ .
(٣) الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٨١ .
(٤) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٩ .
العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٩ ــ ص ٢٠ .

أمنا (١) » • ويفسر المؤرخون هذا التصرف من ناحية صلاح الدين أنه « كان من جميل عادة العرب ، وكريم اخلاقهم ، أن الأسير اذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن ، فقصد السلطان بقوله ذلك (٢) • وكان أن التفت صلاح الدين الى أرناط ، وقال له : « ها أنا أنتصر لمحمد معك » ، ثم عرض عليه أن يعتنق الدين الاسلامى فلم يفعل ، وعندئذ استل صلاح الدين سيفه وضربه به ، فأطاح برأسه ، وأخرجت جثته ؛ فلما رأى الملك جاى ، ارتاع وظن أن دوره آت عن قريب ، ولكن صلاح الدين هدأ من روعه وقال له : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ! ، أما هذا فقد تجاوز الحد ، وتجرأ على الأنبياء (٣)»•

على أن الاخلاق العربية الكريمة لم تظهر فى تصرفات حكام المسلمين مثل صلاح الدين فحسب ، بل ظهرت أيضا فى تصرفات عامة الناس ، والمعروف أن الاعتراف بالجميل ، ورد المعروف ، من الصفات الأصيلة التى يتحلى بها العرب، فطالما حرصوا على رد الحسنة بأحسن منها (٤) • وثمة قصة طريفة رددتها المراجع الصليبية ، تدل على مدى تقدير العرب للمعروف والاعتراف بالجميل • ذلك أنه لم يكد يتم تتويج بلدوين الأول ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية، حتى شرع عام ١١٠١ م فى الاغارة على البلاد العربية المجاورة ، ففى ربيع ذلك العام هاجم قبيلة عربية كانت تعبر الأردن ، فقتل معظم رجالها وأسر النساء والأطفال ، وكانت من جملة الاسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة ، وهى حامل على وشك الوضع ، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادمتها وجملان وقدر من الزاد • ولم تلبث المرأة ان وضعت مولودها فى الطريق ، وعادت الى زوجها لتروى له قصتها (٥) • ولم تمض مدة طويلة حتى أتيحت الفرصة

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩ •

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ١٧٦ ـ ص ١٧٧ •

(٣) أبو شامة : **الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١** •
مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل ، ج ١ ص ٣٢١ ـ ص ٣٢٢ •

(٤) سعيد عاشور : العرب على الصليبيين ، ص ٨٨ •

(٥) William of Tyre : H.st. of the Deeds. Vol. 1 pp. 429—430

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٨ ـ ص ٨٩ •

لشيخ القبيلة ليعبر عن اعترافه بالجميل للملك الصليبى ، ذلك أن بلدوين خرج من بيت المقدس فى ١٧ مايو عام ١١٠٢ م ، قاصدا الرملة ، وكان فى استطاعة المسلمين الاستيلاء على الرملة والقبض على بلدوين ، ولكن حلول الظلام حال دون ذلك ، وجعلهم يؤجلون ذلك الى الصباح التالى • وفى منتصف الليل قدم احد الأعراب ، وطلب ان يقابل الملك ، فجرى السماح له بالدخول ، فكشف عن شخصيته بانه زوج السيدة التى اظهر لها بلدوين المروءة اثناء غارته على بلاد ما وراء نهر الاردن • فأعرب عن امتنانه للملك ، بأن أنذره بأن المصريين سوف يبدأون الهجوم عند بزوغ الفجر ، فينبغى أن يبادر بالهروب • واستجاب الملك لنصيحته ، فتسلل مع سائسه وثلاثة من أتباعه ، واجتازوا بخيولهم خطوط العدو (١) •

ومع أن التزاوج أحد العوامل الرئيسية فى الاختلاط والتفاعل الاجتماعى، فالمشاهد أن المسلمين لم يتم بينهم وبين الصليبيين ببلاد الشام عقد أيـــة زيجات الا فيما ندر للغاية • وبالطبع يرجع السبب فى ذلك الى اعتزاز المسلمين بدينهم وتراثهم ، وأنهم يشعرون أنهم أرقى ثقافة من الصليبيين • ولكن بعض الصليبيين تزوج من الوطنيات السوريات المسيحيات ، كمـــا تزوج بعض السوريين المسيحيين بالفرنجيات، فنشأ عن ذلك التزاوج جيل جديد مهجن جمع بين الجنس العربى والفرنجى ، وهو ما عرف بالبولانى Poulain (٢) • وهناك بعض الصليبيين المستقرين ، غيرت علاقتهم الاجتماعية بالوطنيين تغييـــرا جذريا ، الأمر الذى أدى الى ربطهم بالكيان القومى العربى • فثمة عائلات لبنانية عديدة تدعى أنها من أصل افرنجى ، وتحتفظ باسماء لاتينية ، تدل على أنها

---

(١) William or Tyre : op. cit. Vol. 1 pp. 430—432

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٩٦ ـ ص ٢٩٧ •

(٢) انظر ص ٨٠ ـ ص ٨٢ •

تحدرت من الصليبيين الذين استقروا فى البلاد ، أمثال فرنجية Frankish وصليبى Crusading ، وبردويل Baldwin والدويهى de Douhai ودريان Comte d'Orient ، وطربية Torbey ، وغالب هذه العائلات تنتمى الى الطائفة المارونية (١) .

* * *

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٩٠ .
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .